

اللغة الإنجليزية العالمية حقائق، عوامل جيوسياسية، قضايا

خلفاء روما، الذين حملوا العبء
الرئيس... في توسيع الإمبراطورية،
طلبوا الإقرار لهم بجميع امتيازات
المواطنين الرومان.

آدم سميث، ثروة الأمم

إثيوبيا هي إحدى أقدم الأمم الأفريقية.
استعمرتها إيطاليا لفترة قصيرة خلال الحقبة
الفاشية، وأصبحت منذ ذلك الحين مستقلة،
ولكن فقيرة جداً. كانت أغلب الأسر العام
2012 تكسب أقل من تسعمائة دولار. بعد
خلع الإمبراطور الأخير، هيلاسيلاسي، في العام
1974، مزقت البلاد الانقلابات العسكرية
العنيفة والمجاعة ومشكلات اللاجئين الثقيلة.
ومنذ منتصف التسعينيات فقط استفادت

«التاريخ لا يخلو من حس
السخرية. وامتلاك الحقيقة من
الانتشار العالمي للإنجليزية قد
يكون المتحدث المحلي نفسه.
ستكون بقية العالم ثنائية اللغة في
الحد الأدنى، بينما سيكون متحدث
- الأنجلوأمريكية - المؤهل سابقاً -
منعزلاً في أحاديد اللغة»

المؤلف

من دستور فعال لسكانها البالغين 90 مليونا، ونصفهم في عمر الخامسة عشرة أو أصغر ويعانون الجوع. أقل من 50 في المائة من الإثيوبيين المتعلمون، لكن هذه النسبة المئوية تتزايد؛ وينفق 5,5 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي الآن على التعليم، كما في عديد من الأمم المتطرفة تماما. وتتحدث عشرات المجموعات العرقية أكثر من ستين لغة أصلية، والأمهرية هي اللغة الوطنية الرسمية. وبكتابتها بأحرف فريدة من نوعها، تُعد الأمهرية اللغة السامية الثانية الأكثر تحدثاً فقط بعد العربية.

تقع مدرسة ديغوم الابتدائية بجانب طريق تراري في منطقة تيغري شمال إثيوبيا، على بعد نحو خمسة ميل (800 كيلومتر) من العاصمة، أديس أبابا. وفي صفها الأول يوجد أربعة وأربعون صبياً وبنباً بأعمار من خمس إلى سبع سنوات. وكانوا يأتون من القرى المجاورة، وأكثراً هم حفاة. والقليلون منهم رأوا التلفزيون أو الكمبيوتر أو الهاتف المحمول المتتطور. ولم تكن في مدرسة ديغوم مياه ممددة مع وجود القليل من الكهرباء، ولا شيء منها في البيوت الخاصة. ومع ذلك في هذا الصف الشديد الازدحام، يعرف كل طفل الأبجدية الإنجليزية. وكانت الإنجليزية، في الحقيقة، قد اختيرت اللغة الأجنبية الرئيسة للدراسة في جميع مدارس إثيوبيا.

يصل صحافي بريطاني يعمل في صحيفة رئيسة للقيام بزيارة. ويقيم في منطقة تخيم قرب البلدة (لا يوجد فندق هناك)، ويتصل مع رئيس تحريره عن طريق هاتف القمر الصناعي. ويتوجه في قاعات الدروس، ويراقب الطلاب whom يقرأون ويغنون بالإنجليزية، وبعد لحظة يسأل صبياً في الصف الثامن: لماذا يحتاج إلى تعلم اللغة الإنجليزية؟ ويقول الصبي: «إنها لغة العالم، وأنا أريد معرفة العالم». وبعد ذلك يسأل صبي آخر الزائر: ما هي اللغة الأصلية التي يتحدث بها؟ هل هو إيطالي، بالصدفة؟

يصاب الزائر القادم من إنجلترا بالذهول. ويدرك أنه حتى في هذه المنطقة النائية لإحدى أفقر دول العالم، لم تعد معرفة الإنجليزية ترتبط بأي جنسية، بما فيها جنسيته. ويكتب، بقليل من الانفعال: «نحن نفقد ملكية الإنجليزية الدولية... [إنها] لم تُعد لنا فعلا»⁽¹⁾.

إلى أي درجة هي عالمية، فعلاً؟

ديفيد كريستال وديفيد غرادول اثنان من أشهر الخبراء وأكثراهم مرجعية على نطاق واسع حول التاريخ والظروف الحالية للغة الإنجليزية. وبشكل مثير للانتباه، كتب كلا المؤلفين مجلدات في منتصف التسعينيات أرادت تشخيص وجهة النظر حول الإنجليزية، وبعد ذلك جدداً توقعاتهم في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، بعد أقل من عقد. بدأ إصدار كريستال الأول «الإنجليزية لغة عالمية» (1997) بهذه الطريقة: «في العام 1950، كانت أي فكرة عن الإنجليزية بوصفها لغة عالمية حقيقة مجرد إمكانية نظرية غامضة ومبهمة... مرت خمسون سنة، والإنجليزية العالمية توجد على شكل حقيقة سياسية وثقافية... [ولكن] هل تطورت الأمور إلى درجة أن صعود الإنجليزية بوصفها لغة عالمية لا يمكن إيقافه؟»، لقد أدرك بهذا التاريخ أن موضوعه كان «المرشح البارز» للغة عالمية حقيقة فقط. على أي حال، بعد ست سنوات فقط، عندما نُشرت الطبعة الثانية من كتابه، بدا كريستال قادراً، وملزاً حتى، على الإجابة عن سؤاله: «لقد أصبح فهو [الإنجليزية] كبيراً جداً بحيث لا شيء يمكن أن يوقف انتشارها المستمر بعدّها لغة تعارف عالمية، على الأقل في المستقبل المنظور»⁽²⁾.

اتخذ كتاب غرادول في العام 1997، «مستقبل الإنجليزية»، مساراً مختلفاً. فقد توقع أنه ما من لغة وحيدة ستسيطر على القرن الحادي والعشرين، لكن خمس لغات أو ستة ستكون محور الاهتمام في التواصل الدولي - الإسبانية والعربية والفرنسية والإنجليزية والروسية والصينية. عكس هذا التوقع السنوات الأولى بعد سقوط الشيوعية، عندما بدا العالم منفتحاً إلى مستقبل متعدد القطبية وإلى تنوع لغوي متزايد على مستوى عالمي. على أي حال، مع «كتاب الإنجليزية» هي التالية، الذي نُشر العام 2006، وجد غرادول نفسه مجبراً على عرض رسالة معدلة. كانت الإنجليزية قد أصبحت شائعة جداً، ومهيمنة جداً، ولا يمكن تحديها مطلقاً بحيث إن القدرة على استعمالها للتواصل العالمي سرعان ما ستكون «مهارة أساسية»؛ مثل استعمال لوحة مفاتيح الكمبيوتر. ولأنها أصبحت عادية ومتوقعة جداً، ستفقد البراعة بالإنجليزية مكانتها، كما قال غرادول، تاركة المتحدثين المحليين في منزلتهم المتدنية. على أي حال، إن الافتقار إلى المهارة فيها سيكون معيناً⁽³⁾.

كان كريستال وغرادول كلاهما، بطرقهما الخاصة، قد فوجئنا بسرعة انتشار الإنجليزية في جميع أنحاء العالم. وهذا حريصان على تأكيد أن الظاهرة ليست عالمية كلية - وفي الحقيقة، أن الجزء الأكبر من البشرية لا يتحدث أو يدرس الإنجليزية - ومن المحتمل أكثر ألا يصبح هكذا أبداً. ومن السهل، كما يقولان، المبالغة في تقدير وصول اللغة - ما عدا، ربما، في بعض المجالات الاحترافية. إذن، كيف تُعدُّ الإنجليزية عالمية؟ كم عدد المتحدثين الفعليين بها حول العالم؟ إن كلمة عالمية، طبعاً، لا تدل فقط على الأعداد الكبيرة من المستخدمين المنتشرين عبر القارات ولكن على العديد من مجالات القدرة أيضاً. إذا كانت الإنجليزية الأكثر شمولاً بين اللغات الدولية اليوم، بأي قدر تتجاوز نظيراتها الإسبانية أو العربية أو الفرنسية أو الروسية؟ هذه أسئلة صعبة. ولا يمكن لأحد أن يجيب عنها بدقة. وللقيام بذلك علينا أن نسجل جميع اللغات الحية الموجودة على الأرض ومن يتحدث بها، إلى جانب درجة التعددية اللغوية بين كل مجتمع لغوياً. قد نفترض أن اللغويين استكشفوا الكوكب بالكامل فيما يتعلق بالحديث البشري. لكنهم لم يفعلوا ذلك، وليس بسبب الكسل أو العجز. فإلى جانب مشكلات التعريف التي يصعب التعامل معها - أين تتوقف «لغة» وتبدأ «لهجة» أو «لغة هجينة»؟؟ هناك التحدي الجغرافي والثقافي لتحديد مكان آلاف المجتمعات المتحدثة التي تضم مجرد بضع مئات أو أقل من الأفراد الذين قد يوجدون على شكل مجموعة ثانوية ضمن مجتمع أكبر واحد أو أكثر. بالإضافة إلى ذلك، كيف يتم هذا عندما تتطور اللغات، حتى مع انقراض بعضها كل سنة، بينما تولد أخرى؟ لذلك تبين أنه في بعض المناطق الأكثر تنوعاً لغويًا في العالم، حيث اللغات المحلية كثيرة بشكل خاص، تمت مجرد استطلاعات بدائية أو أولية.

إن أقرب شيء إلى سجل كوكب الأرض اللغوی، في الحقيقة، يتجمع في «لغات العالم»، وهو عمل نشرته منظمة أمريكية ذات أساس ديني^(*). وقد عمل فريق تأليف «لغات العالم» بشكل بطيء لجمع قاعدة بيانات، باذلين جهدهم ليكون كاملاً بقدر الإمكان لكنهم اعتمدوا كثيراً على بيانات إحصاء السكان في العديد

(*) تُعرف اللغة الهجينة بأنها لغة محلية طبيعية مثل مزجاً عميقاً للغتين أصليتين أو أكثر ويجري التحدث بها لغة أساسية لمجموعة. مررت أغلبية اللغات الهجينة بمرحلة كونها خليطاً «مبسطاً»، وأكثر بدائية وأدنى قاعدياً من لغات أخرى.

اللغة الإنجليزية العالمية

من الدول. ويبدو (ويمكنا الزعم بأننا فوجئنا) أنه لم تتحفظ كل أمة بسجل دقيق حول اللغات التي يتحدث بها مواطنوها. وقد أوصت الأمم المتحدة لمدة طويلة بأن تجري الدول إحصاء كاملاً للسكان مرة كل عقد. لكن هذا لم يكن ممكناً في العديد من مناطق العالم، بسبب العروب والصراعات الداخلية، والنزاع على الحدود والفقر وغير ذلك. والبيانات الموجودة يمكن ببساطة أن تكون قديمة أو ناقصة أو غير موثوقة بها⁽⁵⁾.

وباختصار، يمكننا أن نعمل أكثر بقليل من القيام بتخمينات معرفية حول ما يتحدث به الناس حول العالم. لنأخذ الهند، على سبيل المثال، وهي إحدى أكثر الأمم المتعددة اللغات في العالم. هنا في الحقيقة يجري إحصاء للسكان كل عقد، لكن النتائج ليست واضحة ومتفقاً عليها بالإجماع. في العام 2001 وثق إحصاء للسكان نحو 6661 «لغة أم» معينة، لكن اللغويين قرروا أن العديد منها (الآلاف، في الحقيقة) هي مرادفات فعلية للغات نفسها أو خلاف ذلك للهجات منها. أما بالنسبة إلى الإنجليزية فإن الأرقام المعطاة لعدد الهنود الذين يستعملون اللغة بشكل مؤهل تتفاوت كثيراً، من 55 مليوناً على الأقل إلى نحو 350 مليوناً⁽⁶⁾. ومعأخذ هذا التفاوت في الحسبان، ما التخمينات الأفضل والأكثر تقبلاً للإنجليزية حالياً؟ يقترح الذين أمضوا كثيراً من الوقت والجهد في ميادين الإنجليزية العالمية (ومنهم كريستال وغرادول) أن النقاط التالية يحتمل أن تكون حقيقة⁽⁷⁾:

- الإنجليزية لغة أصلية نحو 360 مليوناً إلى 380 مليون شخص، ولغة ثانية (إضافية) لعدد مساوٍ. ولغة أجنبية، يستخدمها على نحو متغير نحو 800 مليون إلى 850 مليوناً. وأغلب هؤلاء المتحدثين الآخرين في أوروبا وأسيا وأفريقيا.
- بحلول العام 2010، نحو 1,5 مليار إلى 1,6 مليار شخص، ربع سكان العالم تقريباً، كانوا لذلك يستعملون الإنجليزية بمهارة أكثر من بدائية. وأعلنت الإنجليزية لغة رسمية أو أعطيت مكانة خاصة في خمس وسبعين دولة على الأقل تمتد كثيراً خارج الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية.
- كذلك في العام 2010 كان 400 مليون إلى 500 مليون طفل آخرين في عمر خمس عشرة سنة أو أصغر يدرسون الإنجليزية في المدرسة، نحو خمس أطفال العالم. والإنجليزية هي اللغة الأجنبية الأساسية التي تدرس في مدارس أكثر من

مائة أمة، بما في ذلك الصين وروسيا والبرازيل وباكستان ونيجيريا وبنغلادش وإندونيسيا ومصر وإيران.

• من المخطط أن يبلغ عدد دارسي الإنجليزية (من جميع الأعمار) الذروة بـ نحو ملياري قبل العام 2020. وستخفيض معدلات الولادة المتناقضة هذه الأعداد فيما بعد.

• يحمل الانتشار العالمي للإنجليزية مكوناً يتعلّق بالجيل: الشباب (تحت سن الثلاثين) استعملوا اللغة في المدرسة والحياة العملية، بنسبة عالية على وجه الخصوص. هذه الإحصائيات مرحب بها ومثبتة للهمة في آن واحد. وهي مرحب بها؛ لأنها تساعد في رسم صورة مبكرة للغة الإنجليزية العالمية؛ وهي مثبتة للهمة في نوعية الصورة التي يبدو هذا بها. لقد اكتسبت الإنجليزية متحدثين و المتعلمين بعشرات ومئات الملايين في كل قارة (وهي لغات التواصل على القارة القطبية الجنوبية أيضاً)، وفي كل من أمم العالم الرئيسة، وفي الدول التي تُعدُّ منافسة مباشرة، أو معادية، للولايات المتحدة. يمكن أن تكون هذه الأعداد مرعبة حتى للمتحدثين المحليين. وهذا يعني، على أي حال، أنه تجري اليوم تبادلات في الإنجليزية أكثر بكثير بين أفراد متعدد اللغات في الدول غير الغربية. وفي الأمم الآسيوية الشرقية بما في ذلك اليابان وكوريا وتايوان، وعلى نحو متزايد الصين، يتم تعليمها لطلاب المدارس الثانوية في المؤسسات العامة والخاصة معاً، بغض النظر عن الخلقيّة أو مستوى الدخل. وفي عديد من الدول النامية يُنظر إلى الإنجليزية بوصفها مساراً لازماً للوصول إلى الفرص الاحترافية والتقدّم الاقتصادي والثقافة الشعبية. أو كما علق يونغ كيونغ تشا وسيونغ هوان هام، اللذان أمضيا عقدين وهما يدرسان انتشار الإنجليزية في المناهج الدراسية عبر العالم، «يبدو أن مستوى عالياً معيناً من القدرة على التواصل بالإنجليزية قد أصبح في العديد من الدول نوعاً جديداً من معرفة القراءة والكتابة الأساسية التي لم تعد تحمل مضامين أيديولوجية غربية، ومثل الكمبيوتر أو المعلومات ترى معرفة القراءة والكتابة متطلباً أساسياً للمواطنين في العالم اليوم»⁽⁸⁾. وبوصفه زائراً إلى مدرسة ديغوم يدرك أنه لم تعد تخص إنجلترا أو أمريكا. ولأنها أصلاً لغة استعمارية في عديد من أنحاء الكوكبة الأرضية، أصبحت وسيلة للناس كي يحاولوا ويتحركوا خارج التأثيرات الاستعمارية.

الإنجليزية في التعليم العالمي

ثمة طريقة أخرى لتقويم انتشار الإنجليزية وهي تأمل فكرة «القوة الناعمة». وقد قام بهذا كتاب آخرون (أحدهم ديفيد كريستال) وهي ذات أهمية بشكل خاص هنا. تشير القوة الناعمة، وهي تعبير صاغه جوزيف ناي، وهو عالم علاقات دولية ومساعد وزير الدفاع الأمريكي السابق، إلى فكرة أن دولة ما يمكن أن تكتسب التأثير ليس بالقوة فقط ولكن بالجاذبية، من خلال أمور مثل السياسة الفعالة والمؤسسات الجيدة والثروة والأيديولوجيا⁽⁹⁾. لكن اللغة كما يتضح هي نوع آخر من الجاذب، نوع يلغى أي حدود وطنية. ويأتي جزء كبير من الحقيقة بالنسبة إلى الإنجليزية اليوم من رغبة الأمم وشعوب أخرى في التقليد والاستفادة من نجاحه. وهذا، أيضاً، ما نتعلمه حين نسمع الصبي في مدرسة ديغوم وهو يقول: «إنها لغة العالم، وأنا أريد معرفة العالم». هل يمكننا أن نقيس هذا الشكل من القوة الجاذبة بطريقة ما؟

ثمة مفهوم، اقترحته قائمة حقائقنا المحتملة آنفاً، وهو أن نتطلع إلى التعليم العالمي. وقد لوحظ أن خمس أطفال العالم على الأقل يدرسون الإنجليزية الآن، وأن هذا الجزء سيزيد، ومنذ العام 2010 أصبحت الإنجليزية اللغة الأجنبية الرئيسية التي تُعلم في المدارس الابتدائية والثانوية لدى 130 أمة أو أكثر. وكان تشا وهام، اللذان ورد آنفاً ذكر عملهما بشأن مكانة الإنجليزية في المناهج المدرسية العالمية، قد قدما مجموعة واضحة وفريدة من البيانات عن هذا الموضوع خلال مدة طويلة من الوقت، من العام 1850 إلى 2005⁽¹⁰⁾. تظهر معلوماتهما، التي تعطي عدة عشرات من الدول، أنه قبل القرن العشرين، لم يكن يجري تعليم الإنجليزية تقريباً لغة أجنبية رئيسية في المدارس الابتدائية والثانوية للدول غير الناطقة بالإنجليزية. وبين خمس لغات عالمية - الألمانية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية والروسية - ظلت الألمانية والفرنسية مهيمنتين في قاعات الدراسة حول العالم حتى وقت متأخر في العشرينات والثلاثينيات وأوائل الأربعينيات. بعد الحرب العالمية الثانية جرى استبدال هذه اللغات بسرعة وتقدم تدريجي، وبحلول العام 2005، كانت الإنجليزية اللغة الأجنبية الأساسية التي يتم تعليمها في نحو 70 في المائة من المدارس الابتدائية و80 في المائة من المدارس الثانوية في 157 دولة وإقليماً. تضمنت المناطق

حيث كانت هذه النسبة 85 في المائة أو أعلى في المدرسة الثانوية الشرق الأوسط / شمال أفريقيا، وأسيا، وأمريكا اللاتينية، وأوروبا الغربية. ولم تكن أغلب الأمم والأقاليم المعنية قط جزءاً من إمبراطورية بريطانيا الاستعمارية أو ضمن دائرة نفوذ الولايات المتحدة الإقليمية.

هناك أرقام أكثر دقة، على أي حال، لمجموعة مختلفة وليس أقل إيحاء من المتعلمين: الطلاب الدوليون. ووفقاً لآخر بيانات متوافرة جمعها معهد التعليم الدولي، بيانات منظمة التعاون والتطورات الاقتصادية التعليم بلمحات خاطفة، والمجلس الأمريكي مدارس الخريجين، يمكن القيام بالبيانات التالية حول هذه المجموعة⁽¹¹⁾.

• ارتفع العدد الكلي للطلاب الدوليين من مليونين في العام 2000 إلى نحو 4 ملايين العام 2011 - وهي نسبة نمو أسرع بكثير مما في السنوات الخمس والعشرين السابقة، عندما ازدادت أعدادهم من مليون إلى مليونين. وكان نحو 44 في المائة من هؤلاء الطلاب في العامين 2009 - 2010 يداومون في جامعات خمس دول ناطقة بالإنجليزية: الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وأستراليا وكندا ونيوزيلندا.

• تنموا النسبة الكلية للطلاب الذين يستعملون الإنجليزية إلى 50 في المائة إذا أضفنا الدول حيث تستعمل الإنجليزية عموماً الآن في الدراسة الجامعية: جنوب أفريقيا وسنغافورة وهولندا والسويد والدنمارك وفنلندا. وهي ترتفع أكثر أيضاً إذا أضفنا الطلاب الذين يستعملون الإنجليزية في بعض مشاريعهم الدراسية، كما هو مخطط في برامج مختارة في فرنسا وألمانيا وبلجيكا وسويسرا وجمهورية التشيك والنرويج وأيسلندا وبولندا وكوريا واليابان.

• كانت الولايات المتحدة، بوصفها الوجهة الأعلى للطلاب الأجانب، تكسب في الأعداد الكلية لكنها تخسر في الحصة العالمية، وتتنخفض من 23 في المائة العام 2000 إلى 18 في المائة العام 2009. حدث هذا مع أن التصنيف الشعبي للجامعات العالمية استمر في تفضيل المؤسسات الأمريكية بهامش كبير (وصل إلى 80 في المائة من أعلى المؤسسات الخمس والعشرين). على أي حال، كانت خسارة النسبة المئوية في أمريكا قد نجمت في أغلبها عن مكاسب في أستراليا وكندا ونيوزيلندا، ومن النمو في برامج اللغة الإنجليزية التي قدمتها الأمم غير الناطقة بالإنجليزية.

اللغة الإنجليزية العالمية

- ارتفعت النسبة المئوية لطلبات دخول الدراسات الجامعية الأمريكية المقدمة من الطلاب الأجانب بمعدل 8,7 في المائة في السنة من العام 2005 إلى 2012، مع ملاحظة أن أعلى الزيادات هي من الصين (نمو 59 في المائة من العام 2010 إلى 2012) والشرق الأوسط زائد تركيا (12 في المائة). وكانت مجالات الدراسة الأكثر اختيارا هي الهندسة (26 في المائة من جميع الطلاب الخريجين الأجانب في الجامعات الأمريكية العام 2012)، وعلوم الطبيعة والتربة (20 في المائة)، والتجارة (17 في المائة)، والعلوم الحياتية (13 في المائة).
- تضمنت مجالات الدراسة الأكثر شعبية التي اختارها الطلاب الجامعيون الأجانب في المملكة المتحدة وكندا وأستراليا، وفق ترتيب الأفضلية، التجارة وإدارة الأعمال، والهندسة والتكنولوجيا، والاقتصاد، والعلوم الصحية، والعلوم الطبيعية والحيوية، والرياضيات. وأنى نحو نصف جميع الطلاب الأجانب في الولايات المتحدة وأستراليا والمملكة المتحدة لدراسة العلوم والهندسة والمجالات المتعلقة بالصحة.
- تزايد عدد الأمم المرسلة فجأة منذ الحرب الباردة، ويتضمن الآن أوروبا الشرقية وأسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا وروسيا والصين. وبحلول العام 2009 كان أكثر من نصف الطلاب الدوليين (52 في المائة) من آسيا - أغلبهم من الصين والهند وكوريا. في تلك السنة كان 567982 صينيا يدرسون في الخارج، أكثر من ضعف الأمة التالية، الهند (211038)، توجه 43 في المائة منهم إلى الولايات المتحدة (124225)، وأستراليا (70357)، والمملكة المتحدة (47033). وقبل العام 2007، كانت أغلبية الصينيين الذين يدرسون في الدول الناطقة بالإنجليزية طلابا خريجين. انتقلت هذه النسبة المئوية بسرعة نحو الطلاب الجامعيين وحتى الدراسة الثانوية.
- كانت الدول الناطقة بالإنجليزية موضع طلب كبير للطلاب الأجانب، لكنها قد تواجه منافسة أكثر قريبا. فالعديد من دول الإرسال السابقة تخطط لجذب طلاب دوليين أكثر، وبينها تايلاند وมาيلزيا وسنغافورة وتركيا والبرازيل والصين. كذلك كانت دول مثل اليابان وكوريا وتايوان وهونغ كونغ، بمعدلات ولادة منخفضة جدا ولكن بتعليم عالي متتطور بشكل جيد، ربما ترى الحاجة إلى

استقطاب طلاب متفوقين (محترفين مستقبليين) للمساعدة في إبقاء اقتصادياتها قوية. وفي أكثر الحالات سيكون الطلب على الطلاب مجبراً على التجاوب مع طلب المعرفة. وهذا يعني كما لاحظنا في الهندسة والعلوم معرفة الإنجليزية، وبالتالي تعلم هذه اللغة.

بعبارة أخرى، يدلي الطلاب الدوليون بآرائهم. وإلى درجة معينة، مع الأخذ في الحسبان اهتمامهم بمتابعة الدراسات التي ستجعلهم أكثر قيمة في سوق العمالة (كما يقول الاقتصاديون، بتحسين رأس المال البشري) وتساعدهم في بدء مهنة، هؤلاء الدوليون يوجدون في مقدمة العولمة. وعدد كبير منهم، خصوصاً الذين يظلون في الدول الناطقة بالإنجليزية لعدة سنوات أو أكثر، سيصبحون جيدين إلى ممتازين في قدرتهم على اللغة الإنجليزية. وببعضهم، طبعاً، لن يفعلوا ذلك؛ لكن هذا لا يعني أنهم سيتوقفون عن استعمال اللغة ببعض المقدرة.

لكن التركيز على الطلاب الأجانب في الدول الناطقة بالإنجليزية يشمل جزءاً واحداً فقط من اتجاه أكبر. وبعيداً جداً عن أمريكا الإنجليزية، تصبح الإنجليزية لغة التعليم الدولي على المستوى الجامعي، وقبل كل شيء في التجارة والعلوم. وليس على المرء أن يكون مدير جامعة ليلاحظ ذلك مع مرور الوقت، وهذا يمكن أن ينفتح بل ويضفي الطابع الديمقراطي على النظام العالمي للتعليم العالي، بحيث إن الطلاب والأكاديميين الإنجليز المؤهلين من أي مكان سيتمكنون من الدراسة والتعلم في أي مكان آخر. ويبدو هذا الاتجاه قوياً، ومتزايداً.

يتضح هذا من عدة فهارس مقررات تعليمية يمكن أن توجد على الإنترنت. على سبيل المثال، في العام 2009 أدرجت جامعة نوريخا في مدريد، وهي مؤسسة صغيرة تضم 2800 طالب، أكثر من خمسين موضوعاً تُدرّس بالإنجليزية، بما في ذلك علوم اللغة العامة، والتسويق الدولي، ونظرية الاتصالات. في تلك السنة نفسها، قدمت جامعة هلسنكي، إحدى أهم جامعات البحوث في أوروبا، والتي يتجاوز عدد طلابها 35 ألفاً مع 30 ألف متعلم باللغة الإنجليزية، صفوها بالإنجليزية لجميع العلوم الطبيعية، بالإضافة إلى كليات القانون والطب (البشري والبيطري) والفنون، وحتى علم اللاهوت. خلال سنتين، كانت هذه العروض كلها في المؤسستين كلتيهما قد توسيعت أكثر⁽¹²⁾. وطوال نحو عقد، كانت جامعة توهوكو في اليابان (تأسست العام 1907)

اللغة الإنجليزية العالمية

قد زودت برامج دكتوراه للطلاب اليابانيين والدوليين في علوم الجزيئات الدقيقة وهندسة الطيران والهندسة البيولوجية وعلم الإنسان الآلي، وأكثر من عشرة مجالات أخرى، كلها تدرس باللغة الإنجليزية. وفي العام 2009، أطلقت الجامعة خطة إعادة توجيه رئيسة لتحويل نفسها إلى مؤسسة عالمية: «بوصفتنا منشئن للمعرفة، سنجاهد لإنتاج قادة مستقبليين بخلفية فنون ليبرالية قوية، وخبرة متخصصة، ورؤى دولية». ولتدويل عروضها التعليمية، تحطّت توهوكو لتوسيع التعلم على الإنترنت، وإيجاد فترات تدريبية ما وراء البحار، وتأكيد الاتصال الثقافي المشترك، وعلى المستوى العملي، «زيادة عدد ساعات المحاضرات الإنجلizية»⁽¹³⁾. خلال ذلك، وببداية من العام 2001، بدأت وزارة التربية الصينية تطالب باستعمال الكتب الدراسية بالإنجليزية في كامل مستوى التعليم الجامعي تقريباً لعدد من الموضوعات الأساسية - تقنية المعلومات، علم الأحياء، المال، القانون. وبحلول العام 2007، تحولت الجامعات الصينية التي تدرس البرامج الإنجلزية في كل من المستويين الجامعي والعلمي إلى العشرات وتضمنت العديد من المؤسسات الأعلى مقاماً⁽¹⁴⁾.

قليل من التاريخ

كيف حدث هذا كله؟ يشير علماء اللغة الإنجلزية بشكل واضح إلى أنه استغرق قرонаً. كان الأساس قد ترسخ في التوزيع الجغرافي للإمبراطورية البريطانية، التي لم تترك في جزء أو اثنين من الكره الأرضية بل غطت جميع القارات والعديد من الجزر الموجودة فيما بينها. كانت قوة وتأثير سيطرة بريطانيا على البحار، وبالتالي على التجارة العالمية، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر محوريتين. وبمرور الوقت، كان كذلك التأثير الإقليمي لمناطقها الناطقة باللهجة المحلية: أستراليا ونيوزيلندا وجنوب وغرب أفريقيا وكندا، والولايات المتحدة طبعاً. واجه الانتشار السريع للإنجليزية خارج هذه الأماكن عقبات حقيقية بشكل مبكر - كانت سياسة لغة إنجلترا بالنسبة إلى مستعمراتها قبل عشرينات القرن التاسع عشر تشجيع التعلم باللغات المحلية للمحافظة على التجذئة والتبغية. وفيما بعد كانت الإنجلزية لاتزال مقتصرة بشكل رئيس على المستويات الأعلى للإدارة الاستعمارية والمترجمين والوسطاء الآخرين، والتجار المهمين. ولكن بوصفها لغة القوة والتجارة، سرعان ما انتهجها آخرون،

خصوصاً الذين كان لديهم اهتمام بالأمور التقنية. وكانت إنجلترا، كي لا ننسى، مركزاً لكل من الثورات العلمية والصناعية.

بعد بلوغ قوة الإمبراطورية البريطانية ذروتها نحو العام 1900، بدأت الولايات المتحدة تصبح القوة وراء انتشار اللغة الإنجليزية. كان إطلاق أمريكا للثورة الصناعية الثانية (1880 - 1914) والثروة الهائلة التي سببتها قد دفع الولايات المتحدة لتصبح أخيراً قوة عالمية حقيقة إلى جانب إنجلترا وفرنسا بوصفها المنتصرة الأساسية في الحرب العالمية الأولى. خلال هذه الفترة نفسها، كانت الولايات المتحدة مصدر مجموعة كاملة من الاختراعات والإبداعات التي غيرت طبيعة الحياة اليومية في الغرب: الهاتف والفنونغراف والكهرباء والأنوار الكهربائية والطاقة وصناعة السيارات والسينما وموسيقى الجاز والثقافة الجماعية عموماً.

على الجانبين السياسي والاقتصادي، أصبحت الولايات المتحدة قوة كبيرة بسبب انتصاراتها في الحرب العالمية الثانية، ونجاحها في تجديد أوروبا عبر مشروع مارشال، وتأسيسها لاقتصاد عالمي جديد عن طريق اتفاقية بريتون وودز، بالإضافة إلى قواعدها العسكرية الواسعة الانتشار وجهودها لإعادة البناء في شرق آسيا. انتشرت الثقافة الشعبية الأمريكية، مثل الأفلام المنتجة في هوليوود وموسيقى الروك والراديو والتلفزيون، بسرعة في هذه الفترة، عندما تعمقت الحرب الباردة. وبالتأكيد، ما من أمة أخرى، خصوصاً الاتحاد السوفيتي، كانت تستطيع منافسة الولايات المتحدة على هذا المستوى الثقافي. حتى خلال السبعينيات المضطربة، ظل اقتصاد أمريكا الأكبر والأكثر ديناميكية في العالم بينما ارتفعت مكانة قيادتها في السياسة والطاقة والعلوم. وعندما انتهت الحرب الباردة وسيطرت العولمة الاقتصادية، تسارع لهذا كلّه. ومع انهيار الشيوعية، بدا نصر أمريكا آمناً، وتأكدت مكانتها بوصفها أمة الفرصة التي لا تضاهي وثقافة الشباب المنشورة.

مجالات الهيمنة

تشير أي لغة عالمية الشك في بعض الفوارق اللغوية التقليدية. لتنتأمل اللغات «الأولى»، و«الثانية»، و«الأجنبية» - تلك التي يجري تعلمها، على التوالي، منذ الولادة، بعد اللغة الأولى، وبعدها لغة غير محلية في بلاد المسرء. ترتبط هذه الفوارق برؤية

اللغة الإنجليزية العالمية

وحيدة اللغة منذ البداية؛ لأنه في عديد من المجموعات اللغوية يتعلم الأولاد أكثر من لغة واحدة في موطنهم؛ أي أن لديهم على الأقل لغتين أوليتين أو «أصليتين». خلال ذلك، في المستعمرات البريطانية السابقة، مثل نيجيريا أو سنغافورة، يمكن تعلم الإنجليزية في البيت أو في المدرسة أو في الشارع أو في أماكن أخرى. ويمكن هكذا تصنيفها مثل التحديات الثلاثة الواردة آنفا كلها بينما تكون أيضاً لغة «رسمية» للبلاد. وهكذا، بتسميتها لغة أجنبية تعطي معنى قليلاً؛ ومع ذلك، بما أنه يجري تعليمها في المدرسة لعدد كبير من الناس أو في البيت إلى جانب لغة أصلية، لا يمكن بسهولة تسميتها لغة ثانية أيضاً. ويصبح الفارق بين «الأولى»، و«الثانية»، و«الأجنبية» على نحو أكثر مسألة سياق ووظيفة واستعمال. وكما تعلم تاجر محترف أو عالم اللغة الإنجليزية في المدرسة وبعد ذلك بدأ يستعملها بصورة دائمة للعمل والسفر والنشاط الاجتماعي، كذلك يمكن لبائع في الشارع أن يعرف لغتين أو ثلاث لغات أصلية ويكون قد تمكن من استعمال إنجليزية ركيكة للتعامل مع السياح والأدلة.

تزيد اللغة العالمية من التعددية اللغوية. وتُعدُّ الإنجليزية غالباً الآن لغة إضافية. وحتى قبل العام 2000، كان النوع التالي من الحالة يلاحظ في هذا الصدد:

يلتقي منتج كوري في فندق بأثينا المشتري البرازيلي لمجموعة أشياء سويسرية وهو لن يتفاوض فقط بل يطلب العشاء من خدمة غرفته باللغة الإنجليزية. وربما لا يكون هناك متحدث إنجليزي محلي واحد في الفندق، لكن جميع المقيمين غير المحليين هناك يتواصلون فيما بينهم بالإنجليزية... وفي العمل والرياضة والسياسة والعلوم والعديد من المجالات الأخرى، أصبحت معرفة الإنجليزية ليست مسألة تباہ بل ضرورة. كذلك: إن المستوى الذي يحدث هذا فيه يتحرك دائماً نحو الأسفل⁽¹⁵⁾.

إن أي دولة تقرر أنها لن تُعلمَ الإنجليزية لشعبها هي دولة تسعى وراء العزلة المستعصية. ومع أن هذا قد يكون جيداً للصورة الذاتية الوطنية، كسياسة للتفاعل مع العالم الكبير، فضلاً على العلوم، فمن المحتمل أن يكون كارثياً. وتصبح المشكلات الناجمة عن العزلة من الإنجليزية واضحة أكثر حتى عندما ندرج المجالات التي تسيطر فيها هذه اللغة الآن على موقع مهيمن أو مهمٍّ قليلاً في سياق عالمي. تتضمن هذه المجالات ما يأتي:

هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية؟

مؤسسات (البنك الدولي، صندوق النقد الدولي،	الإعلان
البنك الآسيوي للتنمية، إلخ)	الطب الحيوي
التسويق العالمي / الدولي	البث (الإذاعي والتلفزيوني)
التجارة العالمية / الدولية	التجارة
الجهاد العالمي (بين متحدثي العربية واللغات الأخرى)	صناعة الكمبيوتر
الصناعة البحرية العالمية	الكمبيوتر / ألعاب الفيديو
النشر العالمي	الديبلوماسية
الإنقاذ العالمي (الكوارث الطبيعية)	الاقتصاد
الأمن العالمي («أسلوب الشرطة»)	صناعة الطاقة
الألعاب الرياضية العالمية	الهندسة
العلوم الإنسانية	حماية البيئة
حقوق الإنسان	صناعة السينما
المساعدة الدولية	عمليات مكافحة الإرهاب العالمية
الأعمال المصرفية الدولية	الاتصالات العالمية
التعليم الدولي	صناعة الأزياء العالمية
القانون الدولي	المالية العالمية والشؤون المالية
صناعة الطاقة النووية	العلاقات الدولية (مجال الدراسة)
الموسيقى الشعبية	خدمات تقنية المعلومات، الاستشارة
علوم الاجتماعيات	العلوم الطبيعية
السفر والسياحة	

لا يسيطر استعمال الإنجليزية بشكل متساوٍ في جميع هذه المجالات، طبعاً وبالنسبة إلى بعضها، مثل السيطرة على الملاحة الجوية، تُعدُّ تطبيقاً عالمياً تقريرياً؛ وفي الأخرى، مثل النشر في العلوم الإنسانية، تتفاوت كثيراً، وفق المجال.

اللغة الإنجليزية العالمية

ولايزال الكثير من العمل التجاري يحدث بلغات دولية أخرى - الإسبانية للتجارة الإقليمية في أمريكا اللاتينية، والعربية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ثمة أمم بما فيها فرنسا والهند واليابان لديها صناعة السينما والأزياء الخاصة الناجحة ذات الشهرة الدولية، على أقل تقدير. ومع ذلك في السياق العالمي، تميل الإنجليزية إلى السيطرة أكثر بكثير من أي لغة أخرى. إن شركة تجارية في الدنمارك والبرازيل (مثل شركة طاقة الرياح Vestas)، تحتاج إلى التفاوض مع الزبائن في الدولتين كليهما، ستستخدم الإنجليزية بالضرورة. وكأس العالم والألعاب الأولمبية، أكبر حدثين رياضيين في العالم، يُثاثن عالمياً بالإنجليزية، مع إجراء مقابلات المشاركين غالباً بهذه اللغة. وما من عمل ثقافي سينمائي يمكن أن يتنافس فعلاً مع الوصول العالمي لفيلم «حرب النجوم» أو «أفاتار». كذلك، هناك العديد من الصناعات المعينة التي تستحق الإشارة إلى استعمالها القوي للإنجليزية - صناعة الآليات، البناء، المواد الصيدلانية، التعدين، الصناعة البتروكيميائية، الأعمال الزراعية، وغيرها.

كما هي عليه الأمور اليوم وللمستقبل المنظور، ما من فرد أو مجموعة أو أمة يمكن أن تتمنى الانشغال بأي من هذه المجالات في الحد الأعلى من دون بعض البراعة بالإنجليزية. حتى الاتحاد الأوروبي حارب بقوة هذه الحقيقة وتقبلها أخيراً، على الرغم من سياسته المشكّلة بعناية للمجتمع المتعدد اللغات «المعروف باسم «اللغة الأم زائد اثنين» (كل مواطن يجب أن يكون ثلاثي اللغات إلى حد ما). نظرياً وبأمر رسمي، لم يكن للإنجليزية في الاتحاد الأوروبي أي مكانة أعلى من أي من لغاتها الرسمية الاثنين والعشرين الأخرى. وعملياً، يعترف المحترفون بالمخايش الفعالة والواضحة المرتبطة بهذه اللغة، التي تُعلّم على أنها اللغة الأجنبية الأولى في المدارس الثانوية لكل دولة من الاتحاد الأوروبي خارج بريطانيا وأيرلندا^(*). وكان لكل صحيفة ومجلة رئيسة تقريباً ذات آمال بوجود قراء دوليين طبعة باللغة الإنجليزية⁽¹⁶⁾. لنجمع دبلوماسيين أو محاضرين أو أطباء من ألمانيا وفرنسا وإسبانيا

(*) وفقاً للبيانات التي نشرتها Eurostat، ارتفعت النسبة المئوية لجميع التلاميذ في أمم الاتحاد الأوروبي السبع والعشرين الذين يدرسوون الإنجليزية في المدارس الثانوية العليا من 82,6 في المائة في العام 2004 إلى 94,6 في المائة في العام 2009. انظر

http://epp.eurostat.ec.europa.eu/portal/page/portal/product_details/dataset?p_product_code=TPS00057

في غرفة واحدة، وستكون الإنجليزية هي التي يختارونها لإعلام أو إهانة أحدهم الآخر. إن كون الحالة هكذا في المنطقة حيث ولدت الهوية اللغوية الحديثة يخبرنا قدراً كبيراً.

العوامل الجغرافية السياسية

إذن، نحن نبقى مع مسألة أي أحداث تتضافر لدفع الإنجليزية إلى مكانتها العالمية؛ لأنها استغرقت فعلاً مجرد جيل واحد، منذ نحو العام 1980، ليحدث هذا. كانت المرحلة، طبعاً، قد حددتها بعض أعمق الأحداث في العصر الحديث - الشورات العلمية والصناعية؛ بناء الإمبراطورية البريطانية؛ الحربان العالميتان؛ الصعود اللاحق لأمريكا إلى مرتبة قوة عظمى. وإذا كانت بريطانيا قد سيطرت على القرن التاسع عشر الإمبراطوري عبر أرستقراطيتها القوية والمتحفظة، فقد هيمنت أمريكا على الكثير من القرن العشرين بأيديولوجيتها بشأن الديمقراطية والمساواة. وببداية من الثمانينيات وأوائل التسعينيات، على أي حال، من العالم بسلسلة جديدة من الهزات الجغرافية السياسية التي انتهت بمنح القوة والأفضلية للغة الإنجليزية. ماذا كانت تلك؟

بداية، كان بين هذه الأحداث انهيار الاتحاد السوفييتي (1991) وإنشاء الاتحاد الأوروبي (1993، في مظهره الحالي). أدت هذه الأحداث من جهة إلى بناء كيان متعدد الأمم متحالف بعمق مع الولايات المتحدة، ومن جهة أخرى إلى دمار الخصم الكبير لأمريكا الناطقة بالإنجليزية وتأثيره العالمي - الحل الذي أنتج أيضاً عشرات الأمم الجديدة عبر أوروبا الشرقية والقوقاز وأسيا الوسطى. كانت نهاية عصر الشيوعية في الكتلة الشرقية (1991)، في الحقيقة، قد أتت سريعاً بعديد من الدول الجديدة إلى الاتحاد الأوروبي، الساعية إلى التكامل مع الغرب. كذلك كانت الشيوعية، المعادية للرأسمالية والغرب، وبالتالي إلى حد ما معادية للأيديولوجية الإنجليزية، قد تلاشت بسرعة في الصين وفيتنام خلال هذه الفترة تقريباً. وحل محلها في تلك الدول دافع كبير للتنمية الاقتصادية وبالتالي للتعاون مع الأمم الغربية، خصوصاً الولايات المتحدة، بالإضافة إلى الجيران الآسيويين الذين انتهجو الطابع الغربي، مثل اليابان. وكانت نهاية التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا وترسيخ الديمقراطية الكاملة

في كوريا الجنوبية، الدولة التي سرعان ما انضمت إلى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (1996)، أو «نادي الدول الغنية»، تطورين آخرين كبيري الأهمية.

جرت أحداث ذات صبغة أسوأ أيضاً. الحروب والإبادة الجماعية التي رافقت تقسيم يوغسلافيا وأدت إلى تأسيس ثمان دول أكثر ضمن أوروبا، والديبلوماسية المعقّدة، والتدخل العسكري، ومحاكمات جرائم الحرب. وسببت الإبادة الجماعية في رواندا والسودان وإخفاق الدولة في تشاد والصومال، زيادة على الاضطراب الكبير والموجة الجديدة من الحروب الأهلية في مكان آخر من أفريقيا، الكثير من الاهتمام الدبلوماسي الجديد وجهود المساعدة لتلك القارة منذ التسعينيات. وببداية من الفترة نفسها تقريباً، ظهر تهديد الإرهاب الدولي على المشهد العالمي، وتوج بهجمات 11 سبتمبر على التراب الوطني الأمريكي ونشاط إرهابي آخر على غوام وفي مدرید ولندن ومومباي. ورداً على ذلك، خاضت الولايات المتحدة حروباً ضد نظام صدام حسين في العراق ضدطالبان في أفغانستان وشمال غرب باكستان. بعد ذلك تزايد الاندفاع في المساعدة الدولية بتوسيع كبير في العمليات العسكرية.

امتدت دعوات المجموعة الدولية للتعامل مع الصراع باتجاهات أخرى. وطلبت القرصنة الدولية في مضيق ملقاً وخليج عدن تدخلاً من عدة أمم وتنسيق فيما بينها. وظهرت السياسة النووية ثانية، وتضمنت مفاوضات مكثفة حول انتشار الأسلحة النووية في كوريا الشمالية جرت خلال محادثات الأطراف السبعة (الولايات المتحدة وروسيا والصين واليابان والكوريتين)؛ وحالة الركود النووي بين إيران والغرب حول منشآت تخصيب اليورانيوم في إيران؛ والسوق السوداء النووية التي بدأها عبد القادر خان، «أبو القنبلة الإسلامية» الباكستاني. وميزت التوترات المتزايدة بين باكستان والهند، التي أدت إلى سباق تسلح نووي متجدد في جنوب آسيا، مصدراً آخر من العداء بنتائج عالمية. وسبب انهيار مفاوضات السلام بين إسرائيل والفلسطينيين وحرب إسرائيل السريعة العام 2006 ضد حزب الله في جنوب لبنان تركيزاً دبلوماسياً وإعلامياً جديداً كبيراً لتلك المنطقة.

تعرضت وكالات معونة الطوارئ العالمية للتحدي وُدفعت إلى توسيع قدراتها وامتدادها بسبب عدة كوارث طبيعية ذات أبعاد وتأثيرات رهيبة:

موجة الحر في العام 2003 في أوروبا (35 ألف قتيل)، وتسونامي في العام 2004 في المحيط الهندي (أكثر من 230 ألف قتيل)، وإعصار نرجس العام 2008 الذي ضرب ميانمار (أكثر من 145 ألف قتيل)، وزلزال العام 2010 في هايتي (أكثر من 150 ألف قتيل أو مفقود) والعام 2011 في اليابان (20 ألف قتيل أو مفقود).

كان عدد من القضايا العالمية الأخرى قد نضج في هذه الفترة الزمنية. وتميز الأهداف الإيمائية للألفية التابعة للأمم المتحدة - القضاء على الفاقة والجوع، وتعظيم التعليم العالمي والمساواة بين الجنسين، وتحسين صحة الأمهات والأطفال، ومكافحة فيروس نقص المناعة / الأيدز، وكفالة الاستدامة البيئية - طموح تلك المنظمة لتحسين نوعية الحياة حول العالم. على غرار ذلك، أطلق مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة والتنمية في العام 1992 (المعروف أيضاً باسم قمة ريو) جدول أعمال القرن الـ21، وهو مجموعة كبيرة من الجهود الجديدة التي تهدف إلى التعليم، والمفاوضات، والسياسة المتعلقة بالاستدامة وحقوق الإنسان. تابع المؤتمر تهديدات عالمية مثل قطع الأشجار والتتصحر وتلوث المحيط ونقص التنوع الحيوي، وخصوصاً تغيير المناخ. وأخر هذه القضايا، الناجمة عن العمل العلمي الجاري بشكل أساسي في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، أصبحت نفسها موضوعاً رئيساً في المناقشات العالمية عن المستقبل، وتضم مواضيع رئيسة مهمة أخرى مثل مصادر المياه وتزويد الطاقة وتوفير الغذاء.

وأخيراً، في حدتها الأعلى، عادت آسيا إلى مركز الشؤون العالمية ربما في أكبر تغيير للقوة خلال القرن الحادي والعشرين. كان التركيز غالباً على الصين - ليس من دون عقلانية، من أجل برنامجهما الضخم للتحديث وتأثيرها العالمي المتوسع. ومحاولة الصين لبناء اقتصاد صناعي - مبني على المعرفة خلال ما يزيد قليلاً على جيل واحد بينما استغرق الغرب قرنين لإنجازهما كليهما، لم يسبق لها مثيل قط، وقد منحت الدولة حضوراً سياسياً مهيمناً في منطقة المحيط الهادئ وخارجها. لكن الإنجاز الصيني، والمخاوف التي أثارها، يمكن أن تقلل من أهمية سمات مهمة أخرى للنمو الآسيوي. وكانت كوريا الجنوبية، أيضاً، قصة نجاح اقتصادي وتقني مميز، خصوصاً منذ أوائل الثمانينيات، دافعةً شعبها خارج الفاقة ومنضمة إلى منظمة

اللغة الإنجليزية العالمية

التعاون والتنمية الاقتصادية في العام 1996. وظلت اليابان، على الرغم من كсадها الاقتصادي الذي استمر أكثر من عقدين، بين أعلى خمس دول في الناتج المحلي الإجمالي وإحدى أتم العام العلمية والهندسية الأساسية. وتحسب روسيا والهند أيضا جزءا من تغيير القوة الآسيوي، مستكملا قائمة الأمم الرئيسة. خلال ذلك، كانت الموجة المهمة التالية للتقدم العصري قد بدأت في أمم مثل فيتنام وإندونيسيا وماليزيا.

كيف عملت هذه الأحداث والاتجاهات كلها مصلحة انتشار اللغة الإنجليزية؟ لقد فعلت ذلك بإزالة المنافسة ذات الأساس السياسي (الروسية) وبتقديم الحاجة إلى الدبلوماسية العالمية والمساعدة الدولية و مجالات المفاوضات التي كانت الإنجليزية تكسب الأسبقية فيها. سبب الهبوط السريع للغة الروسية بعدها لغة تواصل في دول البلطيق وأوروبا الشرقية وآسيا الوسطى على بحر قزوين نوعا من الفراغ اللغوي الذي أرادت الأمم الجديدة ملأه في آن واحد بلغاتها الأصلية، التي قمع بعضها لعدة عقود، وباللغات التي تقدم ارتباطات خارجية أوسع، ليس للأسوق العالمية فقط ولكن للمجموعات السياسية وانتقال التقنية والمؤسسات الثقافية أيضا. كانت الإنجليزية، وبعض لغات أخرى (التركية في القوقاز، على سبيل المثال) الفائزة الواضحة هنا. وكان صعود آسيا على المشهد الجغرافي السياسي قد نشر اللغة الإنجليزية لبعض هذه الأسباب نفسها، ولكن أيضا؛ لأن هذه اللغة تصرفت كأنها لغة تواصل ضمن أجزاء كبيرة من هذه المنطقة: بين الهند وباكستان؛ وفي الأغلب بين اليابان وكوريا وروسيا والصين، خصوصا عندما تكون الولايات المتحدة على علاقة بذلك؛ وفي جنوب شرق آسيا (على سبيل المثال، الإنجليزية هي اللغة الرسمية في رابطة شعوب جنوب شرق آسيا، ورابطة الأمم الآسيوية الجنوبية الشرقية، التي تمثل عشر دول وأكثر من ألف لغة أصلية).

ومع ذلك ساعدت حقائق الجغرافيا السياسية في تعجيل نمو الإنجليزية لسلسلة أسباب أخرى:

- توسيع حفظ السلام الدولي، وحقوق الإنسان، والقانون.
- تحالف عسكري بقيادة الولايات المتحدة في حرب الخليج وأفغانستان والعراق.

- تشكيل تحالف وقائي، عن طريق توسيع منظمة حلف شمال الأطلسي (أكثر من عشرة أعضاء جدد منذ العام 1991).
- إجراءات مكافحة الإرهاب العالمية، خصوصاً بعد 9/11.
- المالية العالمية والتحليل الاقتصادي.
- صناعة الطاقة العالمية، بما فيها مصادر النفط / الغاز ومنظمات مثل: وكالة الطاقة الدولية (باريس) والطاقة النووية وكذلك مصادر مختلفة أخرى.
- منظمات الإنقاذ العالمية، لأن أغلب هذه تدير عملياتها باستعمال اللغة الإنجليزية.
- منظمات غير حكومية مرتبطة بمساعدة الدول النامية، والقضايا البيئية، والصحة العالمية، والتمويل الصغير.
- المساعي الدولية العلمية والهندسية والطبية.

وهكذا، حتى قبل أن نتذكر ظاهرة العولمة وكل ما تتضمنه، نجد أن الإنجلizية قد تقدمت بحقائق التاريخ الحديث. وفي عديد من هذه الحقائق، تعمل الولايات المتحدة بصفة قيادية - ولكن ليس كلها، بأي شكل. فأمريكا لا تسسيطر على المساعدة وحفظ السلام في أفريقيا، ولا تقود جهود الإنقاذ الدولية الرئيسة. وليس العنصر الأساسي في المفاوضات حول السياسة الأوروبية نحو جنوب شرق آسيا (التي تستعمل الإنجليزية)؛ أو عمليات الوكالة الدولية للطاقة الذرية؛ أو المحكمة الجنائية الدولية أو محكمة جرائم الحرب في لاهاي، التي لم تنضم إليها الولايات المتحدة وتعارضها حتى من حين إلى آخر، أو صياغة المعاهدات الدولية، مثل قانون البحار، الذي لم تصادق عليه الولايات المتحدة حتى العام 2012.

على أي حال، خارج اللاعبين الكبار، توجد الرؤية الشاملة للتقدم الاقتصادي والعلمي السريع في الدول النامية. وباستثناء الصين والهند، تحدث في هذه الأمم التحرّكات الأكثر تصميمًا نحو التحديث. وفي أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين كانت تنمو اقتصادياً بنسبة أكثر من ضعفي أي دولة متقدمة وكانت مسؤولة على الأقل عن ثلث الناتج المحلي الإجمالي العالمي. وكان العديد منها، الخارج من عقود صراع ما بعد الاستعمار وال الحرب والفاقة، يريد بناء مستقبل مختلف جداً. وكان للإنجليزية دور كبير، ولو أنه معقد، تقوم به في هذه الجهود، كما توضح الحالة في رواندا.

حالة رواندا: الإنجليزية للتاريخ والسياسة والعلم

في العام 2008 أعلنت حكومة رواندا الإنجليزية لغة وطنية وحيدة، لتحول محل اللغة الاستعمارية الفرنسية⁽¹⁷⁾. وبعد سنة، انضمت الدولة إلى الكومنولث البريطاني، على الرغم من افتقارها إلى أي رابط تاريخي مع بريطانيا العظمى. ومنذ نهاية الإبادة الجماعية الرهيبة في العام 1994 كانت الإنجليزية في الحقيقة اللغة الرسمية هناك إلى جانب الفرنسية والكينية الرواندية الأصلية. وقد أعلن هذا بعد أن أسقطت الجبهة الوطنية الرواندية نظام الهوتو المسؤول عن القتل الجماعي وأسست حكومة جديدة. والتاريخ أساس هنا، فهو لا يظهر فقط أن اللغة سياسة، ولكن أن الإنجليزية، بعدها لغة عالمية في المجالات الاقتصادية والعلمية، قد انتشرت بوساطة عدة أنواع مختلفة من القرارات.

في العام 1959 خلعت أغلبية الهوتو ملك التوتسي الحاكم، وسيطرت على البلاد، وشرعت في قتل آلاف التوتسي ودفع مزيد إلى المنفى في أوغندا وتanzania المجاورتين الناطقتين بالإنجليزية. وفي السنوات التالية بنى نظام الهوتو علاقات مع كل من فرنسا وبلجيكا (القوة الاستعمارية الأصلية). خلال ذلك، كان أولاد اللاجئين التوتسي، الذين ترعرعوا وهم يتعلمون التحدث بلغتهم المحلية الكينية الرواندية والإنجليزية، قد شكلوا الجبهة الوطنية الرواندية، التي بدأت في العام 1990 حرب ثلات سنوات ضد حكومة الهوتو. وحارب حكام الهوتو، بدعم كل من فرنسا والدول الناطقة بالفرنسية في إفريقيا، الجبهة الوطنية الرواندية حتى وقف إطلاق النار في العام 1993. على أي حال، كان التوتر العرقي قد دفع إلى مستوى هستيري تقريراً نتيجة أيديولوجية الهوتو المتطرفة (مدعومة بمالفاهيم الاستعمارية للتوتسى بوصفهم عرق الغزو القديم) التي زعمت أن التوتسي يقتلون ويستبعدون جميع الهوتو. أطلق اغتيال رئيس الهوتو في أبريل العام 1994 العنان لعاصفة إعلامية ضد جميع أعمال التوتسي وعمليات القتل الجماعي التي وصلت إلى مليون شخص. استمرت الإبادة الجماعية عدة أشهر حتى تمكن الجبهة الوطنية الرواندية من السيطرة أخيراً. وبالنسبة إلى الحكومة الجديدة كانت الإنجليزية لغة المقاومة والنصر. وستكون الفرنسية ضرورية لفترة؛ فقد عملت المؤسسات الوطنية بهذه اللغة طوال نصف قرن،

لكن فرنسا والجبهة الوطنية الرواندية بدأتا بتبادل الاتهامات حول التورط في الإبادة الجماعية، مع قطع رواندا لجميع العلاقات الدبلوماسية في العام 2006، عندما طلب قاض فرنسي توقيف الرئيس بول كاغامي. ولم تهدأ الأمور بكشف أن الدعم الفرنسي للهولوتو كان إلى حد ما مسألة سياسية، لحماية تأثير فرنسا المتضائل في أفريقيا ضد «العدوان الناطق بالإنجليزية»⁽¹⁸⁾.

دمرت الإبادة الجماعية تقريبا الاقتصاد الرواندي، المستند إلى استمرار الزراعة. ومع ذلك مرت البلاد في العقد بين 1996 و2006 بتحسن استثنائي؛ وازداد الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 10 في المائة في السنة. كان هذا ممكنا بسبب المساعدة المتزايدة من المؤسسات الغربية (البنك الدولي، صندوق النقد الدولي، وكالة الولايات المتحدة للتنمية العالمية)، واضطاعت السياسة الحكومية أيضا بدور. وتحت حكم كاغامي، كانت رواندا قد سعت إلى تحسين الأحوال برفع مستويات التعليم وبناء البنية التحتية، وجذب الاستثمار من الأمم الأفريقية الأخرى. وقد عملت جيدا في توسيع التجارة مع أوغندا وكينيا وجنوب أفريقيا الناطقة بالإنجليزية. وقمنت أن توسع هذه الجهود أكثر من خلال وزارة جديدة للعلوم والتكنولوجيا والبحث العلمي، التي غايتها وضع العلم التطبيقي في مركز خطط التنمية الوطنية. وكان سيتم إنشاء مؤسسة للمساعدة في تحسين إنتاج المحاصيل، وتأمين ري وكهرباء أفضل، وتقديم اللقاحات والرعاية الصحية العامة. وفي العام 2010 ظل معدل دخل الفرد في رواندا أقل من دولار واحد في اليوم؛ لتبقى إحدى أفق الأمم على الأرض. وبالنسبة إلى المعرفة، كان يمكن تحقيق أهدافها المعلنة بسهولة: فالخبرة التقنية لم تكن توجد فقط بل كانت تعمل في الدول الأخرى. ومع ذلك فالروانديون مبتلون بنقص الكهرباء - وهذا وحده يحدد أي مسعى وجмиيع الجهود للتحديث، وقد أدى أيضا إلى إزالة سريعة للأشجار (خشب للوقود). وفي العام 2010 لم يتجاوز الإمداد الكهربائي خمسة وخمسين ألف كيلو واط (55 ميغا واط) - لا تكاد تكفي بضعة آلاف بيت في الولايات المتحدة - مخصصة لخدمة سكان يتتجاوزون 10 ملايين.

بدأ مفهوم إبداعي لتوليد الطاقة يتحسن في العام 2009 بقيادة شركات من الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا والدنمارك ورواندا نفسها بمساعدة من

حكومة الكونغو، ودعم من نصيحة خبير من منظمة شركات الطاقة الأمريكية والباحث المائي ومقرها في سويسرا (Eawag). يتضمن المفهوم استخراج غاز الميثان من المياه العميقة لبحيرة كيفو؛ وكان مقدار تريليوني قدم مكعب منها قد تجمع في البحيرة من تنفس البكتيريا المنتجة للأوكسجين ثانوي أكسيد الكربون، والتي تسرب إلى المياه الكثيفة الأدنى من مصادر بركانية ارتبطت بنظام الصدع الأفريقي الشرقي⁽¹⁹⁾. على أي حال، إن شواطئ البحيرة مأهولة بكثافة، وهناك أخطار محتملة في المشروع. وأي تسرب مفاجئ لكل من الميثان وثاني أكسيد الكربون إلى السطح يمكن أن يخنق كل حياة مجاورة، كما حدث في العام 1986 في بحيرة نيوس، في الكاميرون، حيث مات ألف وسبعمائة شخص. هذا مع العلم أن بحيرة كيفو تبلغ أكثر من ألف ضعف حجم نيوس، وعدد السكان الذين يعيشون قريبين منها أكبر بمقدار مشابه. لذلك يمكن لانفجار الغاز أن يشكل كارثة. ولرغبتها في معرفة مزيد عن هذه الأخطار وتقدير المصدر بشكل أفضل، شاركت الحكومة الرواندية في رعاية حلقة دراسية العام 2010، بالإنجليزية، وبشكل مفصل، بشأن علم الأرض والتاريخ والأخطار المتعلقة ببحيرة كيفو⁽²⁰⁾. وأدت المشاركة من الولايات المتحدة وإيطاليا وسويسرا وبلجيكا والكونغو وتanzania وإثيوبيا وكندا.

كان تطوير رواندا، ونموها الاقتصادي المستقبلي وتزويدها بالكهرباء، وأمان سكان بحيرة كيفو كلها تعتمد إلى حد ما على اللغة الإنجليزية. والإنجليزية ليست الضمان لحدوث أي من هذه طبعا. فاللغة لا تستطيع تجاوز الحقيقة السياسية أو الاجتماعية، وهي أداتها في أغلب الأحيان. ولكن هذه هي الفكرة بالضبط. فتطبيق الإنجليزية سيكون عنصرا مهما في خطة تنمية أكبر لرواندا، وهي ضرورية لكنها بعيدة عن كونها كافية. وبوجود نحو 10 في المائة من السكان فقط يتقنون هذه اللغة الآن، فإن التغيير إلى الإنجليزية قد يسبب صراعا، وحتى مقاومة، ويمكن بسهولة أن يستغرق أجيالا لتحقيقه. وستبقى الكينية الرواندية اللغة الوطنية الأساسية، خصوصا في التعليم، بينما سيتم تعليم الإنجليزية بوصفها لغة أجنبية. وبذلك فإن نوعية عملية التعليم، والأهم من ذلك، التوزيع العادل للتعليم نفسه سيكونان حاسمين.

قدرات المقارنة

وهكذا فإن رواندا تقدم حالة حول كيف تتلاءم الإنجليزية مع التواریخ المعقدة (والعنيفة أحياناً)، وكيف أن مکانتها العاملية، خصوصاً في العلم والتكنولوجيا، قد حفّرت توسيعها المستمر، أحياناً على حساب لغات دولية أخرى (الفرنسية في هذه الحالة). وهنا يمكن أن نعود إلى موضوع سبق ذكره: كيف تقارن الإنجليزية مع لغات البشرية الأساسية الأخرى؟

التقديرات في الجدول (2 - 1)، التي تم جمعها من عدة مصادر مختلفة، تقريرية حتماً لكنها مع ذلك تقدم بعض الرأي والمساعدة. وهي تظهر المجال المحتمل لمتحدثي اللغة الأولى لأكبر عشر لغات في العالم، والتوزيع العالمي فيما يتعلق بعدد الدول التي يجري التحدث فيها، وما إذا كانت كل واحدة تبدو أنها تتسع، أو مستقرة نسبياً، أو متناقصة في درجة الاستعمال الدولي.

تبرز عدة أفكار من هذه الأعداد. بالإضافة العدد الأقصى للمتحدثين المحليين في هذه القائمة، يشكل المجموع (3,2 مليار) نحو نصف سكان العالم (7 مليارات في أواخر العام 2012). إن عدد المتحدثين غير المحليين لهذه اللغات كبير أيضاً - وبإضافة المحليين وغير المحليين يبلغ 4,9 مليار إلى 5,5 مليار شخص، مما يعكس الطبيعة المتعددة للغات للعالم. وبالنسبة إلى اللغات الأكثر انتشاراً، تأتي العربية بعد الإنجليزية، ثم الإسبانية، ثم الألمانية، والبرتغالية. من الواضح أن هذا يعكس تاريخاً طويلاً جداً من الاستعمار والإمبراطورية (كانت العربية لغة مستعمرة عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا الوسطى في القرنين السابع والثامن الميلاديين). وفي الحقيقة، إن خريطة لغات العالم الدولية الرئيسة اليوم ستكون إلى حد كبير خريطة للممتلكات الاستعمارية والإمبراطورية السابقة (الاستثناء هو الألمانية، إلى حد ما، التي يتعلّق توزيعها أيضاً بالهجرة في أوائل القرن العشرين). خلال ذلك، تُعدُّ المندرين أقل انتشاراً لكنها تتّوسع بشكل فعال، بسبب مجموعات المهاجرين الجديدة في مناطق مثل آسيا الوسطى وأفريقيا، حيث تأسست «مستعمرات اقتصادية» صينية.

الجدول (2-1): تصنيفات تقريبية للمتحدثين المحليين باللغات

المحكية العشر الأكثر انتشارا في العام:

اللغة	عدد المحليين	الوزن العالمي: عدد الدول (*)	عدد المحظوظين غير المحليين (***)
المندرين	850 - 930 مليونا (**)	30 - 30 (متزايد)	15 - 20 مليونا (٩)
الإسبانية	360 - 400 مليون	45 - 50 (متزايد)	50 - 70 مليونا
الإنجليزية	360 - 380 مليونا	115 - 140 (متزايد)	1500 - 1500 مليون
الهندية	360 - 380 مليونا	20 - 25 (مستقر)	120 - 150 مليونا
العربية	220 - 275 مليونا	57 - 60 (متزايد)	100 - 150 مليونا
البرتغالية	180 - 210 ملايين	37 - 40 (متناقص)	15 - 20 مليونا
البنغالية	180 - 205 ملايين	10 - 12 (مستقر)	30 - 50 مليونا
الروسية	150 - 200 مليون	33 - 35 (متناقص)	75 - 100 مليون
اليابانية	125 - 126 مليونا	15 - 20 (متناقص)	> 10 ملايين
الألمانية	90 - 120 مليونا	40 - 34 (متناقص)	10 - 20 مليونا
المجموع	3226 - 2875 مليونا		1916 - 2190 مليونا

المصادر: «لغات العالم» (دالاس: معهد اللغات الصيفي الدولي، 2009)
 ديفيد كريستال، «الإنجليزية لغة عالمية» (كمبريدج: منشورات جامعة كمبرidge، 2005)
 ديفيد غرادول، «الإنجليزية هي التالية» (لندن: المجلس البريطاني، 2006)
 ر. إ. إيشر وكريستوفر موسلي، «أطلس لغات العالم»، الطبعة الثانية (لندن: روتلنج، 2007)
 كيث براون، إعداد، «موسوعة اللغة وعلم اللغة»، الطبعة الثانية (نيويورك: إلسيفي، 2005)
 أندرو دالبي، «قاموس اللغات» (نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، 2004)
 برنارد كومري، «لغات العالم الرئيسة»، الطبعة الثانية (لندن: روتلنج، 2009)
 جيفري جيل، «مقارنة المكانة العالمية للإنجليزية والصينية: نحو لغة عالمية جديدة؟» الإنجليزية
 اليوم 27، رقم 1 (مارس 2011)، 52 - 59.

(*) تستعمل اللغة وسيلة أساسية أو مهمة للتواصل، الشفهي أو المكتوب، سواء في المجتمع بشكل عام أو مجتمعات المهاجرين الكبيرة.

(**) تتضمن المحكية و/ أو المكتوبة.

(***) تتضمن عدداً تقريبياً من يستخدم كل لغة للاتصال الفعلي. يستثنى هذا الطلاب الذين يدرّسون اللغة في المدرسة والقادرين فقط على قراءة أبيات من الأغاني والأفلام والنصوص الدينية، واستعمالات أخرى غير تفاعلية.

(٩) الصينية مهيمنة، مع لغة غير المندرين بعدها لغتهم الأولى مثل الأويغور والهاكا والوو واليو.

يفتقر الجدول (2 - 1) إلى لغة مهمة، تضم خمساً وأربعين إلى خمسين أمة في مجتمعها - لقد انخفضت الفرنسية، ليس في أفريقيا فقط، ولكن في جنوب شرق آسيا أيضاً، حيث حلّت محلها الإنجليزية والصينية.

تقف الإنجليزية في فئة تختلف عن جميع اللغات الأخرى. وتظهر أن عدد المتحدثين المحليين ليس مهماً جداً بالنسبة إلى الانتشار والتأثير العالمي. إن متحدثي المندرين الذين يبلغون 900 مليون أو نحو ذلك هم صينيون إلى درجة كبيرة؛ وكذلك هم المتحدثون غير المحليين، الذين لغتهم الأم إحدى اللغات المهمة الأخرى في الصين: اليو Wu، والوو Yue (كانتونية)، والمينبي Minbei. وهذه أيضاً هي الحال بالنسبة إلى الهندية والبنغالية في الهند وبنغلادش. والروسية حالة معقدة ومثيرة للاهتمام بسبب انهيار الاتحاد السوفييتي؛ لأنّ عدة ملايين في الجمهوريات السوفيتية السابقة إما روس العرق أو يعرفون الروسية جزئياً لغة محلية، وجزئياً لغة الغزاة / المحتلين، وجزئياً لغة أكبر سلطة اقتصادية وسياسية قريبة. وبعد الإنجليزية، أكثر لغة تُدرس حول العالم هي الإسبانية، التي ربما لها نحو 50 مليون إلى 70 مليون متعلم غير محلي⁽²¹⁾. وتُعطى أرقام أصغر بكثير للإسبانية والألمانية، على الرغم من امتدادهما الواسع في النصف الأول من القرن العشرين. (تستمر الألمانية بعدها لغة محادثة إضافية محلياً في أجزاء من أوروبا الشرقية وفي لوکسمبورغ ولختنستاين وسويسرا وأمريكا الشمالية والجنوبية). ومن جديد، تُعدُّ الفرنسية غائبة عن قائمتنا بشكل مدهش؛ وبعدها كانت لغة التواصل المهيمنة خلال القرن الثامن عشر في أوروبا ومفروضة على أجزاء كبيرة من غرب أفريقيا وجنوب شرق آسيا، تضاءلت بشكل تدريجي على نحو كلي. ومع ذلك، تقف الإنجليزية خارج الآخريات كلها بحكم حجمها. وكما يدرك زائرنا البريطاني إلى مدرسة ديجوم، أصبح المتحدثون المحليون أقلية متناقصة صغيرة.

يقودنا التوزيع الجغرافي للسؤال عن اللغات المستعملة على الإنترنت، وهي مجال لغوي كبير جيد يتسع كل سنة⁽²²⁾. والسؤال حاسم، لأنّ هذا المجال هو الآن الوسيلة التي يحدث فيها أكبر حجم للتبادل اللغوي حول العالم. واستناداً إلى عدد المستخدمين، شهدت التسعينيات سيطرة الولايات المتحدة واللغة الإنجليزية على الشبكة. في تلك المرحلة من وجود الإنترنت، لم تسمح مواضع تقنية بعرض سهل

اللغة الإنجليزية العالمية

للرموز غير الرومانية، مما منع استعمال اللغات عن أكثر الأماكن سكاناً على الأرض: الصين والهند والأمم الناطقة بالعربية وغيرها. وكان ما يزيد على 80 في المائة من استعمال الإنترنت بالإنجليزية، مما دفع بالكثيرين إلى التصريح (وإبداء أسفهم) بأن الهيمنة اللغوية أصبحت قوية. وبعد عقد، نعرف أن هذا كان مؤقتاً. كانت ولادة هيمنة لغوية على الإنترنت مبالغ فيها كثيراً. وقد عدل المشهد العام نظام تشغيل قياسي محدث لترميز الأحرف وانتشار أجهزة الكمبيوتر الرخيصة ودخول الإنترنت خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وبحلول العام 2010 مما استعمال الإنترنت كثيراً، وانخفضت نسبة مستخدمي الإنجليزية الكليين. وفي العام 2011 بلغ استعمال الإنترنت بالإنجليزية 27 في المائة فقط - لازال الأكبر في العالم لكنه الآن أقل من مجموع لغتين آخريين معاً فقط، الصينية والإسبانية. وفي الحقيقة، خلال العقد 2000 - 2010 أظهر ارتفاع استعمال الإنترنت نمواً عربياً قدره 2500 في المائة؛ روسيا 1825 في المائة؛ وصينياً 1277 في المائة؛ وبرتغالية 989 في المائة؛ وإسبانيا 743 في المائة، مع الإنجليزية بنسبة 281 في المائة⁽²³⁾. ويبعد معنى هذه الأرقام واضحًا: لقد لحق بها بقية العالم. وبين 1,97 مليار مستخدم للإنترنت بتقدير العام 2011، كان أكثر من النصف في الدول النامية؛ ومع ذلك مثل هذا مجرد 17,5 في المائة من مجموع السكان في هذه الأمم، موحياً بأن «التقسيم الرقمي» ظل حقيقة متميزة، لكن النمو المستقبلي الكبير لاستعمال الإنترنت محتمل أيضاً.

ماذا عن المحتوى؟ ثمة إشاعة عامة لاتزال ترى أن 80 في المائة من المعلومات على الإنترنت تظل بالإنجليزية. ومع ذلك فهذه النسبة المئوية ليس لها إثبات حقيقي وينظر إليها بوصفها إشاعة. في العام 2003 قدمت موسوعة الإنترنت رقماً قدره 68,4 في المائة⁽²⁴⁾، وهي نسبة مئوية دقيقة إلى حد ما. وإذا ركزنا على الشبكة وحدها، من دون وسائل الإعلام الاجتماعية، هل يمكن أن يكون هذا قريباً من الدقة؟ ثمة تلميح: الخوارزميات المصممة لتحديد وتصنيف صفحات الويب وفق تواتر الاستعمال (مثل HITS, PageRank) لاتزال تحدد موقع اللغة الإنجليزية بشكل ساحق. وثمة إشارة غير مباشرة أخرى: عدد المستعملين الإنجليز المباشرين الفعلي في العام 2011، وفقاً لإحصائيات موقع شبكة الإنترنت العالمية، كان 565 مليوناً، وهو أعلى بكثير من الرقم العالمي الكلي للمتحدثين المحليين. وهكذا فإن

أعداداً كبيرة من المتحدثين غير المحليين يبحثون عن مادة الإنترن特، وفي العديد من الحالات، يضيفون إليها باللغة الإنجليزية. وهذه ليست الحالة لمستعملي الويب الصينيين (509 ملايين العام 2011)، ولا للذين يستعملون الإسبانية (165 مليوناً) أو العربية (65 مليوناً)⁽²⁵⁾. وسكان الشرق الأوسط لا يضيفون محتوى جديداً بلغة المندرين؛ والذين في الصين وإسبانيا لا ينشئون موقع باللغة العربية. إنهم يفعلون هذه الأشياء بالإنجليزية، في جميع الأحوال.

سيتغير الكثير، ولا يتغير. فالتقنية الرقمية، من أجهزة الكمبيوتر الصغيرة إلى الهاتف الخلوي، بعيدة عن العالمية؛ والشبكة العالمية ليست عالمية على الإطلاق. ثمة مسافة كبيرة يجب عبورها قبل أن يصبح الناس في كل دولة مجهزين للإنترنط، يمتلكون الكمبيوتر، ويتعلمون استعماله. في العام 2011 كان ما لا يقل عن 1,5 مليار شخص يعيشون من دون كهرباء، ومن المتوقع أن أكثر من مليار سيفيقون من دونها في العام 2030⁽²⁶⁾. ونحو نصف سكان العالم يواصلون العيش بأقل من 2,50 دولار في اليوم⁽²⁷⁾. إن العصر الرقمي لم يبدأ حتى بالنسبة إلى أغلبية البشر. واستعمال الإنترنط قد يزداد - بين العامين 2000 و2011، ارتفع عدد مستخدمي الإنترنط من 500 مليون إلى 2 مليار - لكن حقائق الاقتصاد والطاقة سيكون لديها الكثير مما تقوله حول كيفية استمرار ذلك النمو وأي مجموعات لغوية جديدة تجد الحياة على الإنترنط. وتَعدُّ وسائل التواصل الاجتماعية بفرصة جديدة كثيرة. بهذا الشكل توسع استعمال الإنترنط بسرعة كبيرة في السنوات الأخيرة، خصوصاً في الأمم الأفقر⁽²⁸⁾. وهناك احتمال بإمكانية دخول العديد من اللغات المحلية إلى الإنترنط. ومع ذلك هناك احتمال مماثل بأن هذا لن يحدث، وأن التنظيم والتمويل والإرادة المطلوبة لن تأتي معاً؛ لأن المتحدثين يرون فرصاً أفضل في لغة مهيمنة أكثر.

والآن على الأقل، الإنجليزية هي اللغة الوحيدة على الشبكة التي يمتد مستخدموها الدائمون أبعد بكثير خارج حدود دولها الأم. ووفقاً لكيو أكاساكا، نائب الأمين العام للأمم المتحدة للاتصالات والإعلام، استمرت موضع اللغة الإنجليزية في العام 2009 بالسيطرة على الإنترنط بمستوى نحو 70 في المائة⁽²⁹⁾. ومن جديد، هذه الإحصائية قد تبالغ في وصف الحالة - فمن المعروف، مثلاً، أن الأعمال التجارية

اللغة الإنجليزية العالمية

من جميع الأنواع والأحجام تمارس «تحديد موقع الويب»، وتأكد أن مواقعها هي باللغة (أو اللغات) المحلية حيث يحاولون بيع السلع والخدمات. ومع ذلك إذا كان لهذه الأعمال التجارية مخارج في المناطق السياحية، وفي المراكز المالية المحلية، وموانئ الشحن، ومراكز السفر، وبلدات الجامعة، فسيكون لديها إصدار إنجليزي لموقع شبكتها أيضاً.

يستخدم تقريراً جمبي طلابي الآتين من شرق آسيا موقع ويب بالإنجليزية خارج الصف، مع أن مهاراتهم تتفاوت في اللغة. وأغلبهم يرى الإنجليزية وسيلة ضرورية. وتحمل موقع الثقافة الشعبية والشبكة الاجتماعية جاذبية كبيرة، لكن طلاباً قليلاً أنشأوا صفحات ويب بالإنجليزية كجزء من عملهم لدى هيئة حكومية أو شركة دولية. وأخبرني تشانغ بارك من سول:

في البيت وفي الجامعة نستعمل موقع ويب إنجليزية؛ لأننا مضطرون إلى ذلك. أنا مهتم بصناعة الفولاذ. وبعض أفضل الشركات توجد في اليابان والآن في الصين. لكن الشركات اليابانية، مثل مصنع فولاذ اليابان، الذي يصنع أفضل حاويات المفاعلات النووية في العالم، لديها كلها موقع لشبكاتها بالإنجليزية. والشركات الصينية تفعل هذا أيضاً، ببطء أكثر. يمكن أن أجده موقع إنجليزية أخرى تحتوي على معلومات عن فولاذ أنواع، مثلاً. وهي أسهل بكثير من تعلم اللغة الصينية.

أسأل عن ترجمة موقع إلكتروني، كالذي تقدمه غوغل وبابلفيش. ويقول «إنها نتيجة رهيبة! لماذا نستعمله؟ إن موقع الويب هو باللغة الإنجليزية فعلاً».

حالة لغات العالم: تحت التهديد

سيثير أي تعليق يقارن امتداد اللغات الرئيسة اليوم مسألة الحالة العامة لهبة البشرية اللغوية. والحالة الواضحة هي هذه: 6909 لغات جرى إحصاؤها (بوساطة لغات العالم)، وعلى الأقل 94 - 96 في المائة منها لغات أصلية. وتتحدث بها مجتمعات تضم بين 1 و10 آلاف فرد، يبلغ مجموعها أقل من 6 في المائة من سكان العالم. وباختصار يوجد تنوع كبير للغة البشر لدى مجموعات صغيرة من الشعوب المحلية المبعثرة بين الأمم تسيطر عليها لغات قوية اقتصادياً واجتماعياً وأكثر تحدثاً

بكثير جداً. وفي عام نصي حديث، وبناء على ذلك، تُعد هذه اللغات المحلية التي تزيد على 6 آلاف ضعيفة للغاية⁽³⁰⁾.

كذلك يوجد عدد كبير في خطر. ويوصف نصفها بأنه «يُحتضر»، بمعنى أن الأولاد لا يتعلمونها بعد. وكانت نسبة انقراضها تتسارع وربما يزول الجزء الأكبر منها قبل العام 2100. وثمة نقاش قليل حول هذا. وبعض الأرقام مؤثرة، بما فيها المعطاة آنفاً. وهناك حقيقة مميزة أخرى هي أن ما بين 200 و300 لغة فقط تكتب فعلاً، بمعنى أن لها قواعد إملاء شاملة، أو نظام كتابة، في الاستعمال اليومي لمجتمع التحدث المعنى. وهذا الرقم تقريري في أحسن الأحوال، لكنه يبدو صحيحاً(*). ولا حاجة إلى القول إن اللغات الإملائية هي الوحيدة التي يمكن استعمالها لمعرفة القراءة والكتابة والتعليم وأمهن والتواصل العام بالعالم الخارجي، بالإضافة إلى دخول الإنترنت. كان في أمريكا الشمالية العام 2010 نحو 194 لغة حية، بالمقارنة مع أكثر من 300 لغة قبل الاستيطان الاستعماري. لكن المجموع اليوم مجرد 33 لغة يتحدث بها كل من البالغين والأولاد⁽³¹⁾. يقدم هذا فكرة عن مقدار صعوبة الحالة فعلاً في بعض المناطق الأغنى لغويًا. وبينما يتقلص العالم في العصر الرقمي، يضعف تنوعه في الحديث.

يؤدي هذا كله إلى خاتمة فعالة. قد يكون الناس في العقود القليلة الأولى من القرن الحادي والعشرين آخر من يعيش بين جزء أساسي من تراث البشرية اللغوي. لذلك قد يبدو هدفاً ملحاً استعمال الأدوات الرقمية لتوثيق ما لايزال موجوداً بالإضافة إلى ما فقد. ومن الواضح أن أرشيفاً عالمياً على امتداد هذه المجالات سيكون ضرورة عميقة وخصبة. جرت بعض الخطوات المبكرة في هذا الاتجاه. فقد جمعت منظمة الأمم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة (اليونسكو) «أطلس لغات العالم المعرضة للخطر»، الذي يتضمن الآن 2500 مدخل⁽³²⁾. ويدرك «لغات العالم» 473 لغة حول العالم على حافة الانقراض تماماً، في الأغلب في الأمريكتين - البرازيل وكولومبيا وبيرا وكندا والولايات المتحدة.

(*) ترجمت أجزاء من الكتاب المقدس (مثل صلاة الرب، لوقا 11: 2 - 4) إلى أكثر من 2000 لغة، بما فيها العديد من اللغات الأمريكية الأصلية مثل آراباهو وكومانتشي وهوي. وكل هذه ما عدا بعض مئات أصلية أو أنها شفهية كلها أو بشكل مهيمن. لذلك فإن ترجماتها صوتية، تستعمل أبجدية قواعد الإملاء الإقليمية، مثل السيريلية أو الرومانية، لكتابية الأصوات المنطقية لكل مقطع في الكتاب المقدس. وهذا بالتأكيد لا يقارن بامتلاك نظام كتابة كلي.

وكان في أستراليا أكثر من 90 لغة أصلية تُحتضر الآن. وتُعدُّ بابوا غينيا الجديدة وشرق سيبيريا مناطق «بقع ساخنة» أيضاً. وتجري جهود الإنقاذ في هذه الأماكن كلها⁽³³⁾. وهناك فكرة متزايدة عما قد يكون مفقوداً، ليس لغويًا فقط ولكن ثقافياً، وتاريخياً، وعلمياً أيضاً، فيما يتعلق بالمعرفة الأصلية حول علوم البيئة المحلية والأدوية والعلوم الأخرى.

لذلك قد نتمنى أن تجد أي مساعٍ وثائقية وإنقاذية الدعم الذي تستحقه. وفي بعض الحالات يحدث هذا. فقد شهدت أمريكا الشمالية، على سبيل المثال، عشرات القبائل الأصلية ذات دخل من الكازينوهات المربيحة توظف اللغويين والمعلمين للمحافظة على لغاتها المحلية، وإنعاشرها من خلال المدارس المحلية والقنوات الإعلامية. ويصبح المتحدثون المسنون الذين لا يزالون طليقين في اللغة، والذين كبروا وهم يتتحدثون بها، «مراجع» ثمينة في العديد من هذه الجهود. ومع ذلك قد يكون هؤلاء الناس متربدين في تقدمهم، جزئياً بسبب العديد من العقود حين كان حديثهم المحلي يُعد علامة تخلف بالمقارنة مع الإنجليزية. وبكلمة أخرى، إن المحافظة على هذه اللغات تتتسابق مع الزمن، ومع ذلك لا تستطيع الهروب من آثار التاريخ. قدم عدد من القبائل منها كبيرة متعددة السنوات لأقسام علوم اللغة الجامعية بهدف وضع قواميس وقواعد وتاريخ شفهية ومادة وثائقية أخرى ستساعد في إبقاء لغاتهم سليمة وربما تساعده حتى في خلق أنظمة كتابة لهم⁽³⁴⁾. هذه الجهود كلها جديرة بالاحترام، فهي جهود ليست للمحافظة على أشكال الحديث فقط، ولكن لاسترداد هويات محددة. وليس مؤكداً إن كانت ستنجح، لكن الاحتمالات تتحسن كثيراً منذ عقود قليلة. بيد أن حدوثها في أغنى أمة على وجه الأرض قد لا يكون مصادفة.

إن حدوث الكثير من التهديد في الأزمنة الحديثة يعطي معنى حدسيًا. فقد عمل الاستعمار كثيراً لتفريق وتدمير الناس الأصليين وبالتالي لغاتهم. وفي أوروبا أتاحت ظهور الدولة القومية المجال للغة موحدة واحدة (أو عدد صغير جداً منها)، مما همش اللغات المحلية. واليوم، أيضاً، تجبر اللغات الوطنية المهيمنة على التخلّي عن اللغات المحلية في أنحاء العالم. كان للإسبانية في أمريكا اللاتينية، والروسية في سiberia، والعربية في شمال أفريقيا، بالإضافة إلى الإنجليزية

في الولايات المتحدة وأستراليا وكندا، تأثير مضاد. وكان للحكاية بضعة مقاطع مشرقة في حدوث ذلك التجديد الناجح - الويلزية والأيرلندية والغالية والبريتون والماوري. جرى تعديل دستور فرنسا العام 2008، ومنح اعترافاً رسمياً بلغات الأقلية. ومع ذلك لا يمكن أن تأمل هذه الانتصارات بمنافسةآلاف اللغات التي اختفت أو المهددة اليوم.

تصبح اللغات مهددة عندما يكف الناس عن التحدث بها. وهي لا تموت فعليها؛ فهي ليست مخلوقات حية، أو «نوعاً» ثقافياً أو ما شابه ذلك، لكنها نظم تواصل يمكن التخلص منها، أو استبدالها، أو رميها في الحفظ الأرشيفي. (وجهة النظر الدارونية حول اللغات بوصفها «نوعاً» فعالة على المستوى المجازي، لكنها مضللة عند أخذها بشكل حرفي، فيما يتعلق بـ«الملامة» وـ«الاختيار»، وهكذا، وتؤدي بأن التغيير اللغوي جزء من الطبيعة وغير مرتبط بالأحداث التاريخية). وقد تتضادف عدة أسباب نحو هذه الغاية:

- الغزو أو الحرب، عندما تضعف لغات المعرضين للغزو أو يحل محلها حديث المحتل، الذي يصبح اللغة المهيمنة.
- المجاعة، المرض، الكارثة الطبيعية، التي يمكن لأي منها أن تضعف مجتمعاً لغوياً.
- التغيير البيئي، مثل تحويل أرض عشائرية للزراعة، أو إزالة الأشجار، أو التصحر، مما يدفع الناس إلى المغادرة.
- الهجرة، عزل مجتمع لغوي (أو جزء كبير منه) بحيث يجري استيعابه بعد ذلك في مكان لغوي جديد.
- التمدن، مع انتقال الناس من المجتمعات المحلية إلى المدن وتبني الثقافة واللغة المهيمنتين.
- تغيير الثقافة، حيث يختار أفراد من المجتمع المحلي (خصوصاً شبابه) ترك الطرق التقليدية وتبني أساليب الحياة والحديث العصرية.
- سياسة اللغة، حيث تحدد الحكومة عدد اللغات التي ستستعمل للتعليم أو في مجالات مختلفة.
- القرارات الأبوية يجعل الأولاد يتعلمون لغات غير محلية لتقديمهم، وبذلك حصر اللغة المحلية في أماكن عامة تماماً.

ما علاقة انتشار اللغة الإنجليزية بهذا كله؟ لقد تعرضت لللوم؛ لأنها العامل الأساسي في رفع مخاطر اللغة إلى مستواها العالي الحالي. وبوصفها لغة العولمة، اتهمت «باليبراليّة اللغويّة»⁽³⁵⁾. هل تتأمر الحكومات والشركات الأمريكية والبريطانية لاستعمال هذه اللغة كوسيلة للاستعمار الاقتصادي؟ هل حققت مثل هذه القوة بحيث تتصرف الآن لضعف اللهجات المحلية في كل مكان؟ هل أصبحت بذلك ليس مجرد تهديد بل «لغة قاتلة فعلية»، قادرة حتى على «الإبادة الجماعية اللغوية»؟ هذه الأسئلة، المستمدّة من جزء من الأدب العلمي، تظهر أن الحد بين المجاز والحرفيّة قد عُبر، أو نُسي. إن الخوف والبغض الموجهين نحو اللغة الإنجليزية، على الرغم من عدم وجود ردود عقلانية كلّياً على ديناميكيّة اللغة اليوم، يعكسان كيف يمكن أن يظهر تأثير هذه اللغة قوياً، وكيف تبدو مجتمعات أخرى عاجزة أمام توسعها. ونحن لذلك مرغمون على التفكير بالدليل.

تقدّم الدراسات التجريبية أربع نقاط رئيسة. أولاً، الانتشار العالمي للإنجليزية ظاهرة غير منتظمة ومتغيرة جداً. وفي بعض الأمم، يجري التحدث بها واستعمالها على نطاق واسع، كما في إسكندرافيا. ولكن في دول أخرى مثل اليابان، حيث يجري تعليمها لأغلبية الأولاد الساحقة، يظل استعمالها خارج قاعة الدرس في حدّه الأدنى، وهي اللغة الوطنية التي تهدّد اللغات المحلية (في حالة اليابان، لغتا الآينو Ainu والأوكيناوا Okinawan). في هذه الحالات تناقص الإنجليزية اللغات الدوليّة الأخرى. وأي تهديد للغة أصلية يحدث عندما يقرر الناس أو يجبرون على تبني الإنجليزية بوصفها لغة محلية، وهو الشيء الذي حدث بشكل واضح في بعض الأماكن، مثل أمريكا الشمالية وأستراليا، لكن ذلك بعيد عن كونه قاعدة عالمية. ثانياً، ليست الإنجليزية على الإطلاق اللغة الدوليّة الوحيدة ذات العلاقة بموت اللغة. وتتضمن المناطق ذات أعلى مستويات التهديد أمريكا الجنوبيّة وسيبيريا وشرق الهند وبابوا غينيا الجديدة، وهي أماكن حيث تفسح اللهجات المحلية المجال للإسبانية والبرتغالية والروسية والبنغالية والإندونيسية⁽³⁶⁾. ثالثاً، حين يتعلق الأمر بحديثهم، لا يُعد الناس ضحايا روتينيين غير مطلعين. وفي بعض الحالات يكونون مجرّدين على التخلّي عن حديثهم المحلي. ومع ذلك غالباً ما يكونون عوامل ناشطة ويتخذون القرارات التي يظنون أنها أكثر فائدة لهم ولمصلحة أولادهم. وربما

يستحقون إلى درجة كبيرة «الحقوق اللغوية»؛ وهم أيضاً ممثلون رئيسون في دراما اللغة الإنجليزية⁽³⁷⁾.

أي قوى نشيطة جداً تهدد اللغة اليوم؟ توحى الدراسات الميدانية بأن التمدين والتدمير البيئي (يؤثران في المجتمعات العشائرية الصغيرة)، وتغيير الثقافة، واختيار الوالدين لها أهمية عالية. يرتبط بعض هذه الأسباب فعلاً بالعولمة؛ وبعضها ليست كذلك⁽³⁸⁾. ومع ذلك، حين نضعها معاً، تتقدم عدة عوامل فوراً.

الأولاد هم المصدر اللغوي الأكثر حسماً، في كل حالة. وهم الرابط لكل مستقبل، ومصدر البقاء لأي لغة. وهكذا فإن أي شيء يؤثر في تعلم لغتهم حاسم أيضاً. والتعليم، إذن، يجب أن يكون أيضاً عاملاً أساسياً. واللغات التي يتم تعلّمها في المدرسة لها فرصة أفضل لاكتساب استعمالٍ واسع أو المحافظة عليه. وعلى نظام التعليم أن يختار لغته (أو لغاته)، وهذا قرار سياسي. وثمة فكرة - لتدريب الأولاد على لغة مهيمنة ولغتهم المحلية معاً - تبدو ممتازة، لكنها لا تخلو من المشكلات؛ ويظل ضرورياً إجراء الخيارات بين اللغات المحلية، وتدريب المعلمين. والتعليم ليس حلاً لنزاعات اللغة، وهو غالباً ساحة الحرب نفسها. ويوحى وضع التعليم والأولاد معاً بحدى أهمية إدراك الفرصة. وهنا لا يعني مجرد دخُل أعلى، ولكن فرصة لعمل مجزٍ أكثر؛ ومستويات معيشة أفضل؛ ورعاية صحية وغذاء محسّن؛ وبيئة أكثر أماناً؛ والوصول إلى أشكال حديثة من الترفيه والاستجمام؛ ومادة ثقافية؛ ومشاركة سياسية. هذه السمات كلها، في النهاية، تتركز في المناطق الحضرية، مستقبل الإنسانية^(*). فالمدن هي مراكز الحياة الحديثة: الحكومة، الاقتصاد، الجامعات، الأعمال التجارية، الإعلام الجماهيري، ثقافة الشباب، وأكثر بكثير يوجد كله هنا، حيث يختلط العدد الأكبر من اللغات في مكان أصغر. لتأمل مدينة نيويورك، حيث يعتقد وجود ما لا يقل عن ثمانمائة لغة⁽³⁹⁾، والعديد منها عرضة للخطر في مناطقها الأصلية، لكنها أقل عرضة للخطر هنا بسبب الاستعمال بين مجموعات صغيرة.

(*) في العام 1950، أقل من 30 في المائة من سكان العالم كانوا يعيشون في المدن، ولكن بحلول العام 2009 أصبحوا 50 في المائة، وبحلول العام 2050 من المحتمل أن يصيروا 70 في المائة. وهذا تغيير عميق عن الماضي، عندما كانت الحياة الريفية المستندة إلى الزراعة تحكم الوجود البشري منذ العصور العجوية الحديثة.

المعاني

يكشف الأولاد في مدرسة ديجوم أن الإنجليزية، بالنسبة إلى عدد كبير من لن يروا الولايات المتحدة أو بريطانيا أبداً، لا تقل عن لغة الحداثة نفسها. وهي لا تتحدث فقط عن إمكان التنمية الاقتصادية الشخصية والوطنية، والتحالف مع (والمساعدة من) قوة العالم العظمى؛ إنها ترتبط أيضاً بأفكار مثل التقدم والعالمية والخروج من الفاقة. وترى عدة دول ومجتمعات أفق أن الإنجليزية وسيلة اتصال وتقدير عالمي. ويقول دانيال، وهو طالب (الدي) من كينيا، «أنا لا آتي إلى هنا لأن أصبح أمريكياً، بل لأكون أفريقياً أفضل، وشخصاً أكثر تطوراً في بلادي». لذلك فإن تعلم الإنجليزية له أبعاد رمزية بالإضافة إلى العملية. وإذا كانت تعدّ عنصراً ضرورياً في أي برنامج لإعداد دبلوماسيين متربين، ورجال أعمال، وعلماء، وأطباء، فهي أيضاً ناقل لما تعني بكونه عالمياً ودليوياً.

في أغلب الحالات، الإنجليزية ليست مفروضة على الناس - لنقل، بطريقة فرض القشتالية الإسبانية على شعب إسبانيا تحت حكم فرانكو، أو اليابانية على سكان كوريا في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية. وهي لا تهيمن على العالم بشكل مستبد، وتبحث دائماً عن ضحايا وأتباع جدد. ولكن يتم اختيارها بوساطة الحكومات والأباء والمحترفين والشباب، وعادة للأسباب المذكورة آنفاً. وفي بعض الحالات، يعمل هذا الاختيار لفرض لغة، بشكل مباشر أو غير مباشر. ومع ذلك من الحقيقي أيضاً أن الحكومات والشركات والمدارس والمهن يجب أن تقوم بالاختيارات، وحتى عندما تفعل ذلك مع تنوع لغوي في الذهن، تحول الظروف لتبدو أكثر تعقيداً من المتوقع.

في جنوب أفريقيا، مثلاً، تمنح السياسة اللغوية امتيازاً متساوياً لإحدى عشرة لغة، بما فيها تسعة لغات محلية أساسية، ولكن من دون أي تعليمات مشرعة ومحددة حول أين وكيف يجب استعمالها، بحيث يستمر زخم الوضع الراهن نحو الإنجليزية، مع نظام التعليم خلفها. تشعر المجتمعات في جنوب أفريقيا عموماً بأن هذه اللغة يمكن أن تكتسب فرصة أكثر في مناطق أكثر، لذلك يختارها الآباء بفعالية، على مستوى أساسي. والحالة معقدة؛ فالثنائية والتعددية اللغوية بين الطلاب شائعة. ونشيد البلاد الوطني هو مزيج من

الإحدى عشرة لغة الرسمية كلها، مع مقاطع شعرية مختلفة منطوقة بكل لغة - محاولة فريدة وليس مقنعة أو ناجحة كلياً في التكامل الرمزي. وهناك استياء طويل الأمد بين السود (80 في المائة من مجموع السكان) نحو تعلم الأفريكانية، اللغة المستعملة من حكومات التفرقة العنصرية ولا تزال منطوقة على نطاق واسع بين السكان البيض. والأفريكانية يجب النظر إليها بوصفها لغة أفريقية محلية (والأفريكانيون^(*) نظروا إليها دائماً هكذا). ومتحدثوها اليوم، بدورهم، ربما يتعجبون من انتشار الإنجليزية؛ لأنها لغة فرضها бритانيون على البوير «المحلين» (استعمارية «البيض للبيض»). والإنجليزية في الحقيقة تحل محل الأفريكانية بسرعة في المجالات الاحترافية، مع أنها منطوقة في 9 في المائة من البيوت فقط و1 في المائة من بيوت الأسر السوداء فقط⁽⁴⁰⁾. تحدد المسألة بكمالها سلسلة طويلة من الصراعات السياسية التاريخية التي لاتزال تجري على مستوى اللغة، لكنها ليست تحت سيطرة أي كيان. وربما يدعوا إلى السخرية، لكن لا يفاجئ على الإطلاق، أن جنوب أفريقيا قد طورت تنوعها الخاص للإنجليزية الذي يعكس هذا التعقيد، وذلك باستيعابها مفردات من عدة لغات أصلية، بما فيها الزولو والبانتو، مع عدة كلمات من الأفريكانية، التي أصبح بعضها الآن جزءاً من الإنجليزية الأمريكية (apartheid, trek, veld, commando).

توجد أنواع من الإنجليزية ذات طابع محلي، أو بالأحرى وطني، يختلف أحدها عن الآخر بشكل ملحوظ في مفرداتها ولفظها وحتى قواعدها في جميع أنحاء العالم، كما ورد ذكره في الفصل الأول. تظهر اللغات الإنجليزية العالمية، التي كيفت اللغة مع أماكن ثقافية ولغوية جديدة، بشكل رئيس - حتى هذه المرحلة - في المستعمرات البريطانية السابقة ولا يمكن عدّها مجرد لهجات أو تحول من معيار (أسطوري) للنقاء. وهي تمثل سمة ديناميكية للإنجليزية العالمية، سمة ميزت جميع اللغات التي انتشرت على نطاق واسع عبر أمم وشعوب مختلفة.

ثمة نقطة قوية: إن اللغات الإنجليزية العالمية دليل على أن الحديث الإنجليزي الأمريكي قد تراجع كنموذج لغوي نهائي. وفيما يتعلق بالحوار عموماً، أثبتت

(*) الأفريكانيون أو الأفريقيانيون: هم جماعة المستوطنين البيض (من هولنديين وغيرهم) الذين يعيشون في جنوب أفريقيا. وهم من حكم البلاد من خلال «الحزب الوطني» منذ العام 1948 حتى 1999. [المحررة].

اللغة الإنجليزية العالمية

الإنجليزية أنها مرنة جدا في التعبير والاستعمال. وسماع قسيس ليبيري يقول لتجمعه: «تقدموا مع الرقص على أقدامكم» Come forward with dancing أو باائع كتب من هونغ كونغ لزيون: «أنصحك كثيرا هذا الكتاب on your feet خطأ غريب، لكن الوقت الذي مضى في المكانين كليهما سيظهر أن الشكلين مقبولان. وفيما يأتي مزيد من الأمثلة:

إنه يتحدث بالهندية البسيطة. He speaks chaste Hindi. (في الهند: تعني «الهندية النقيّة»).

يريد صديقي أن يصبح أزرق. My Friend would like to become a navy (في نيجيريا؛ يريد أن ينضم إلى البحرية). سيسلاح السكان السقوف على أساس غوتونغ رويونغ. Residents will repair the roofs a gotong - royong basis (في ماليزيا؛ على أساس تعاوني).

حدث ذلك الحادث كان في السادسة مساء happened at 6 p.m (هونغ كونغ).

الدجاج هنا دائما توک كونغ. Chicken here is always tok kong. (في سنغافورة؛ لذيد دائما).

رطل من الغيط لا يمكنه تسديد أونصة دين. Pound of fret Can't pay ounce a debt (في جامايكا؛ القلق لا يمكنه تخفيض الدين).

قدمت أمريكا الإنجليزية، بكلمة أخرى، مادة بادئة بحيث كان بقية العالم مشغولا بتشكيل وصنع مادته. وكما سترى في الفصلين المقبليين، كان لهذا انعكاسه الاحتمي على الكتابة الرسمية، حيث راحت مستويات جديدة من المرونة البلاغية تقوم بعملها، وهي حقيقة بدأت بالتأثير في العلوم.

لم تتطور تنويعات الإنجليزية بسرعة أو سهولة. فال فكرة أن هذه اللغة (أو أي لغة أخرى) يمكن أن ترسخ بنجاح في جيل أو جيلين فقط، حتى في بعض مهن منتقاة - وهو أمل شائع جدا بين عدة أمم ونظمها التعليمية اليوم - لها دعم تاريخي صغير. وللأسباب علاقة كبيرة بالسياسة الثقافية، بالإضافة إلى النتائج غير المقصودة لأي سياسة لغوية. ولنأخذ حالة الهند. فاللغة كانت تُعلم منذ أوائل القرن

التاسع عشر، ومع ذلك انتشرت بين 10 و15 في المائة فقط من السكان. وكانت الإنجليزية مكتوبة أولياً، سواء لغایات السيطرة أو للاعتقاد بأن التعليم باللغات المحلية كان أفضل للأشخاص غير المستعدين لاستيعاب الثقافة الأوروبية. ومع نهاية القرن الثامن عشر، دافع الزعماء الهنود عن تعليم الإنجليزية على أساس التحديث والتقدم الاقتصادي⁽⁴¹⁾.

جاء قرار تغيير السياسة نتيجة «مذكرة ماكولي القصيرة» المشهورة في العام 1835، التي كتبها اللورد توماس ماكولي، وهو ناشط إنساني في المجلس الأعلى للهند. وناقش بأن التعليم يجب أن يساعد في «تشكيل طبقة يمكن أن تكون وسيلة تعبير بينما وبين الملايين التي تحكمها؛ طبقة من الأشخاص، الهنود في الدم واللون، لكنهم إنجليز في الميل، وفي الآراء، وفي الأخلاق، وفي الفكر». وكان العلم سيصبح جزءاً أساسياً من هذا – وكانت على الطبقة الجديدة مهمة «تنقية اللهجات العامية للبلاد، لإثراء تلك اللهجات بمصطلحات علمية مأخوذة من نظام التسمية الغربية، وجعلها بشكل تدريجي وسيلة تواصل ملائمة لنقل المعرفة إلى الكتل السكانية الكبيرة»⁽⁴²⁾.

سبب التاريخ ضرراً لخطة ماكولي. فالتعليم الإنجليزي ازدهر، ولكن بينما اعترفت السياسة البريطانية بالبنغالية والهندية والأوردو والغواجارati ولغات محلية أخرى، تلقى التدريس بها دعماً قليلاً وضعفت نتيجة ذلك. تزايد الطلب على الإنجليزية في المناطق الحضرية، حيث كانت فرص العمل في البيروقراطية الاستعمارية وفيها. وكان العديد من طلاب المدارس الإنجليزية الجديدة من الأسر الأفقر ودرسو للكسب وظائف كتابية فقط. وكانت مهاراتهم اللغوية محدودة؛ وكانت مناهجهم، المأخوذة من مدارس إنجلترا الابتدائية، غير ملائمة لمتحدثي اللغة الثانية. وكان أفضل إشراف يوجد لدى أطفال الطبقة الراقية والمتوسطة، المتوجهين إلى العمل الإداري. وهكذا فرضت الإنجليزية عدم المساواة الاجتماعية الحالية حتى مع توسيعها لفرص بعض الناس. على أي حال، تدخلت سخرية القدر بطريقة أخرى. فمع بداية القرن العشرين كانت طبقة المتحدثين الضعفاء بالإنجليزية قد استوعبت أفكار الاستقلال وتقرير المصير من التعليم ذاته الذي أراد إبقاءهم خاضعين للاستعمار. وهكذا أصبحوا

عنصرا في القومية الهندية، تبعهم أيضا جزء من نخبة متحدثي الإنجليزية (مثل موهانداس غاندي). لذلك عملت اللغة الإنجليزية في آن واحد ضد استقلال الهند النهائي ولصلحته. وكان توزعها محدودا ومقتصرًا دائمًا. وكان معناها، متضمنا الرمزية، ممتزجا دائمًا⁽⁴³⁾.

وهكذا لا تقدم الهند نموذجا بل دلالة. إن استيراد لغة مهيمنة إلى مجتمع ما يعني عادة إضافة وسيلة قوة جديدة لمكان مأهول بأشكال مختلفة من عدم المساواة. لذلك يمكن استعمال هذه اللغة لتعزيز عدم المساواة أو تخفيضه. ولم يكن توجيه استعمال هذه اللغة للغاية الثانية مهمة سهلة قط.

مسألة المعايير

تشير حقيقة اللغات الإنجليزية العالمية قضية المعايير. لا توجد الآن نقاط مرجعية نهائية للغة الإنجليزية؟ هل سرعان ما تصبح هذه المعايير خارج الموضوع؟ والجواب هو لا، كما سيخبركم أي مدير شركة أو عام. إن الإنجليزية الأنجلو أمريكية لم تفقد دورها بوصفها معيارا عالميا في مجال أساسي ونقي وحاد: الحديث الاحترافي المكتوب. وهنا، يستمر ما يدعى بالإنجليزية المكتوبة المعيارية كتقليد واقعي عالمي. وفي الأحوال كلها، هل هو معيار مطلق؟

ومن جديد، الجواب سلبي. فالإنجليزية المكتوبة المعيارية، بعد كل شيء، هي معيار متتحرك متتطور. وبتعريفها على أنها ذلك الشكل من اللغة المتفق على نطاق واسع بأنه «صحيح» أو «ملائم» أو «مقبول»، فهي ليست محددة بواسطة سلطة استثنائية أو مجموعة من الأمم القوية، ولكن بواسطة إجماع المهيمنين - الناشرين، المحررين، المعلمين، مؤلفي كتب اللغة الدراسية، كتاب الخطابات، الصحافيين، والوسطاء الآخرين الذين يشكلون فعلا نوعية اللغة التي تصل إلى الجمهور القاري. ومعأخذ هذه العوامل المختلفة بالحسبان، والعمل في أنواع مختلفة من المهن، والأمم المختلفة، وكذلك على المستوى الدولي، ليس صادما أن الإنجليزية المكتوبة المعيارية لا تتحقق أبدا اتساقا حقيقيا. ومع ذلك، باستثناء بعض الاختلافات البسيطة فعلا، تقترب معايير الكتابة الاحترافية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وأيرلندا من المعيار

الفعال، المعيار الذي يعززه كثيراً سيل مستمر من منشورات الهيئات الدولية بما فيها الأمم المتحدة (حول السكان والمعاهدات وتغيير المناخ والتغيرات)، والاتحاد الأوروبي، والبنك الدولي، ومنظمة الصحة العالمية، والعديد من المنظمات غير الحكومية.

ومع ذلك لا تهيمن الإنجليزية المكتوبة المعاييرية في كل مكان. ولللغات الإنجليزية العالمية تأثير في هذا المجال. ولنتأمل، كمثال عن الإنجليزية الأفريقية الشرقية المكتوبة، المقطع التالي من خطاب رسمي ألقاه نائب رئيس جامعة ماكيريري، في أوغندا، مرحباً بالزوار الدوليين إلى مؤتمر العام 2011 حول تطورات الهندسة:

نظمت هذا المؤتمر جامعة ماكيريري، كلية الهندسة والتصميم والفن والتقنية تحت موضوع مساهمة البحث العلمي في التطوير. ولا يمكن وجود وقت أفضل من الحالي لجمع العلماء والباحثين والمحترفين ورواد الصناعة من جميع أنحاء العالم، للمشاركة في تجارب تطورات التقنية لتحويل حياة سكان العالم مع التحديات المستمرة المتزايدة. إن جامعة ماكيريري فخورة بوحداتها الأكademية مثل كلية التقنية... التي أبقت البحث ونشر البحث على رأس جدول الأعمال. وكما يمكن أن تعرفوا جميعاً، إن تنفيذ البحث ونشره عبر هذه الندوات هو أحد الأدوار الأساسية للجامعات في السعي إلى خلق معرفة جديدة. بالإضافة إلى ذلك كانت كلية التقنية تنفذ بحثاً تطبيقياً في مجالات مختلفة بما فيها الطاقة المتجدد، وتصميم وسائل النقل، وأنظمة إدارة البيانات، والمختبرات الإلكترونية، والسكن المنخفض التكاليف، وكثير غيرها. ونشجع المشاركين على القيام بزيارة إلى مراكز الإبداع والبحوث هذه في الجامعة للمشاركة في التقدير والمعرفة»⁽⁴⁴⁾.

ثمة مثال ثانٍ من تقرير عن حالة الزراعة في الهند يساعد في تأكيد الفكرة عن طريق الإنجليزية الآسيوية الجنوبية:

إن قطاع الزراعة حيوى للغذاء والأمن الغذائي للأمة. ويبقى القطاع المصدر الرئيس لإعالة ما يزيد على 58 في المائة من السكان مع أن مساهمه في الناتج الإجمالي الوطني المحلي انخفض إلى 14,2 في المائة بسبب النمو العالى الحاصل في قطاعات الصناعات والخدمات. وبالمقارنة مع دول أخرى،

اللغة الإنجليزية العالمية

تواجه الهند تحدياً أكبر؛ لأنها بحصة 2,3 في المائة فقط من مساحة أرض العالم الكلية، عليها تأمين طعام لسكانها البالغين نحو 17,5 في المائة من عدد السكان العالمي. يؤدي هذا إلى ضغط مفرط على الأرض وتجزئة للملكية العقارية. ومقابل خلفية طلبات السكان السريعة النمو لحبوب الطعام، وانخفاض أساس المصدر الطبيعي، وظهور مخاوف من تغير المناخ وتحديات أخرى، ركز قسم الزراعة والتعاون. (DAC) على تنظيم استثمار أعلى⁽⁴⁵⁾.

إن الابتعاد عن الإنجليزية المكتوبة المعيارية واضح في هذين المقطعين (*) - وسيجد معلم الإنجليزية للصف الثامن في مدينة نيويورك أو مدرب مستويات متقدمة في لندن العديد من التفاصيل لتصحيحها منها: أدوات مفقودة، استعمال (وعدم استعمال) للفوائل، اختيار حروف الجر، النحو. ومع ذلك فالكتابتان كلتاهما مهترفين بالغين مررتا بعملية مراجعة وتحرير وتنقیح. وكل منهما تطابق معايير حالية للإنجليزية الآسيوية الجنوبية والأفريقية الشرقية على التوالي. كذلك، مع أنهما ليستا بالإنجليزية المكتوبة المعيارية، فهما مفهومتان كلية لأي متحدث أو كاتب بالإنجليزية المكتوبة المعيارية. وهما لا تدمجان مصطلحات من اللغات الأصلية المحلية ولا تستخدمان تراكيب أو تعبيرات في الجمل يمكن أن تكون منيعة على مستخدمي الإنجليزية المكتوبة المعيارية. وي العمل السياق الاحترافي الرسمي هنا لإعاقبة مقدار إضفاء الطابع المحلي الذي تتقبله كل تشكيلة من غير الإنجليزية المكتوبة المعيارية. إن المقطعين مفهومان بسهولة من الأنجلوأمريكيين، مع أنهما بشكل واضح ليسا شكلًا من الإنجلizية التي تنتهي إليهم.

لذلك فإن غنائم معركة «إنجليزية من؟» ستكون دائمًا واضحة. إلى هذه المرحلة، ظلت اللغات الإنجليزية العالمية واضحة كلها إحداها للأخرى في الكتابة الاحترافية - وهو أمر جيد لأي مهنة لها وصول عالمي. ومع ذلك تُظهر المرونة البلاغية، كما تبين آنفاً، أن كل تشكيلة من الإنجلizية تستمر بالتطور في هذا المجال أيضًا. وهناك مضامين قوية، من دون ذكر الأسئلة، وحتى المخاوف، التي يجب التعامل معها في مرحلة معينة مع استمرار هذا التطور. هل يمكن للإنجلizية الاحترافية أن تنفتح

(*) يفقد المثلان - بعد ترجمتهما إلى العربية - أهميتها في التدليل على التنوعات في اللغة الإنجليزية، بيد أن الفكرة تتضح من الشرح في الفقرة التي تليهما. [المحررة].

أكثر أمام أشكال أخرى من التعبير؟ هل يمكن حتى أن تقبل أساليب أخرى من النقاش الدراسي، أساليب غير مباشرة أكثر نموذجية، على سبيل المثال، لبعض أشكال الحديث الآسيوية؟ هل يمكن للإنجليزية الاحترافية، بعبارة أخرى، أن تصبح جمعية أكثر أيضاً في المرونة البلاغية بالإضافة إلى القاعدة؟ لا شك في أن هذه، بالنسبة إلى بعض الناس، ستكون مناسبة كسياسة باب مفتوح للفوضى اللغوية. وبالنسبة إلى الآخرين يمكن أن ينظر إليها بوصفها مسألة عدالة لغوية.

في الشروط العملية، سيكون ضرورياً للمهيمنين على الإنجليزية المكتوبة، من أجل إبقاء الوضوح العالمي سليماً وأساسياً، أن يمنعوا التغيير المستقبلي خارج حد معين، مميز بالتجربة (أي التجاوز). وهذه أسهل مما يبدو. فلا منظمة أو سلطة لها سيطرة كاملة على الإنجليزية في أي من المهن الرئيسية. ولا توجد هيئة رسمية لإحداث إجماع ووضع معايير، ويؤدي التاريخ بأن مثل هذا الكيان سيتحقق بأي حال من الأحوال. وحتى ضمن الإنجليزية المكتوبة المعيارية، توجد مجموعات استشارية فقط، مثل مجلس المحررين العلميين، والعديد من أدلة الكتابة حول «الاستعمال الصحيح». لذلك فإن الإجماع على المعايير، مهما جرى تعريفه بشكل طليق، سيظل ربيماً في أيدي وأقلام الكثرين، ولذلك سيكون غير مؤكداً.

قد يتبيّن أن مسألة المرونة البلاغية مثيرة أكثر للاهتمام - والتحدي. وهناك الدرجة التي تخلق وفقها المحادثات المختلفة أنواعاً مختلفة من المعرفة نفسها - وبكلمة أخرى، مع كل تنوع معارف متعددة تميز هوية مجموعتها المباشرة من المنتجين والمستعملين. وبعد مرحلة معينة، من الواضح أن الاهتمام بهذه المعرفة المحلية يمكن أن يعمل ضد أو يتنافس مع هدف الوضوح العالمي. والتوازن الذي أحدهه التوتر والتجريب يجب أن يوجد عندئذ.

وبشكل متناوب، يمكن أن يظهر في المستقبل، على الأقل بالنسبة إلى بعض المجالات الاحترافية، تنوع عالمي من الإنجليزية الاحترافية التي تدمج أو تسمح لعناصر من عدة محادثات محلية - كنوع من المعيار العالمي المتداول الواسع. وقد يبدو هذا أقل احتمالاً الآن، بينما تواصل اللغات الإنجليزية العالمية التطور وحدها. ومع ذلك في بعض المجالات، مثل العلوم الطبيعية، حيث يمكن وجود درجة عالية من الإجماع العالمي للمعرفة الراسخة، تبدو محتملة مجموعة من المعايير

اللغة الإنجليزية العالمية

المرنة المتفق عليها تقريرياً من محرري المجلات والناشرين والباحثين. وستتم مقاومة التجزئة المتزايدة (ومن ثم الانعزال)؛ وسيبدو أنه يولد معارف «خطرة» وبالتالي لا يخدم المجتمع العلمي الدولي بشكل جيد.

ثمة مسألة أخرى مثيرة للاهتمام، وهي إلى أي مدى يمكن للغات الإنجليزية أن تتسع. لا توجد طريقة حقيقية، على سبيل المثال، لمعرفة عدد التنوعات الجديدة التي يمكن أن تتطور في العقود المقبلة. ولا يمكن أن نقرر، في هذه المرحلة، كيف يمكن للشكل المنطوق لكل تنوع أن يستمر في التميز بعيداً عن التنوعات الأخرى، وبالتالي كيف يمكن لقابلية لغات التواصل العالمية الإنجليزية أن تصبح في النهاية في مستوى الحديث. وقد أضفت بعض اللغات الدولية السابقة (اللاتينية، العربية) الطابع المحلي على أماكن ثقافية لغوية مختلفة في منطقة واسعة، وتجزأت في النهاية إلى لغات أو تنوعات منفصلة غير واضحة بشكل متبدال. ولم تفعل ذلك أخرى (اليونانية، الفارسية)، على الرغم من استمرارها في التطور. وهذا لا يوجد لدينا دليل واضح. ولا يمكننا القول: إنه إذا واصلت الإنجليزية التطور والنمو بشكل منفصل، فإن هذا سيئي بالضرورة الوضوح العالمي للإنجليزية الاحترافية المكتوبة. ويمكن أن نحصل على تلميحات وأفكار مهمة من النظر إلى ماضي اللغات الدولية، كما سنفعل في فصل لاحق. ولكن ليس هناك سوابق حقيقة، ولا نسخ حقيقة، ولا أقراص ذات قواعد منقوشة لإخبارنا ماذا سيحدث. لم يكن هناك قط لغة عالمية قبل ذلك.

دوائر المتحدثين - والمتعلمين

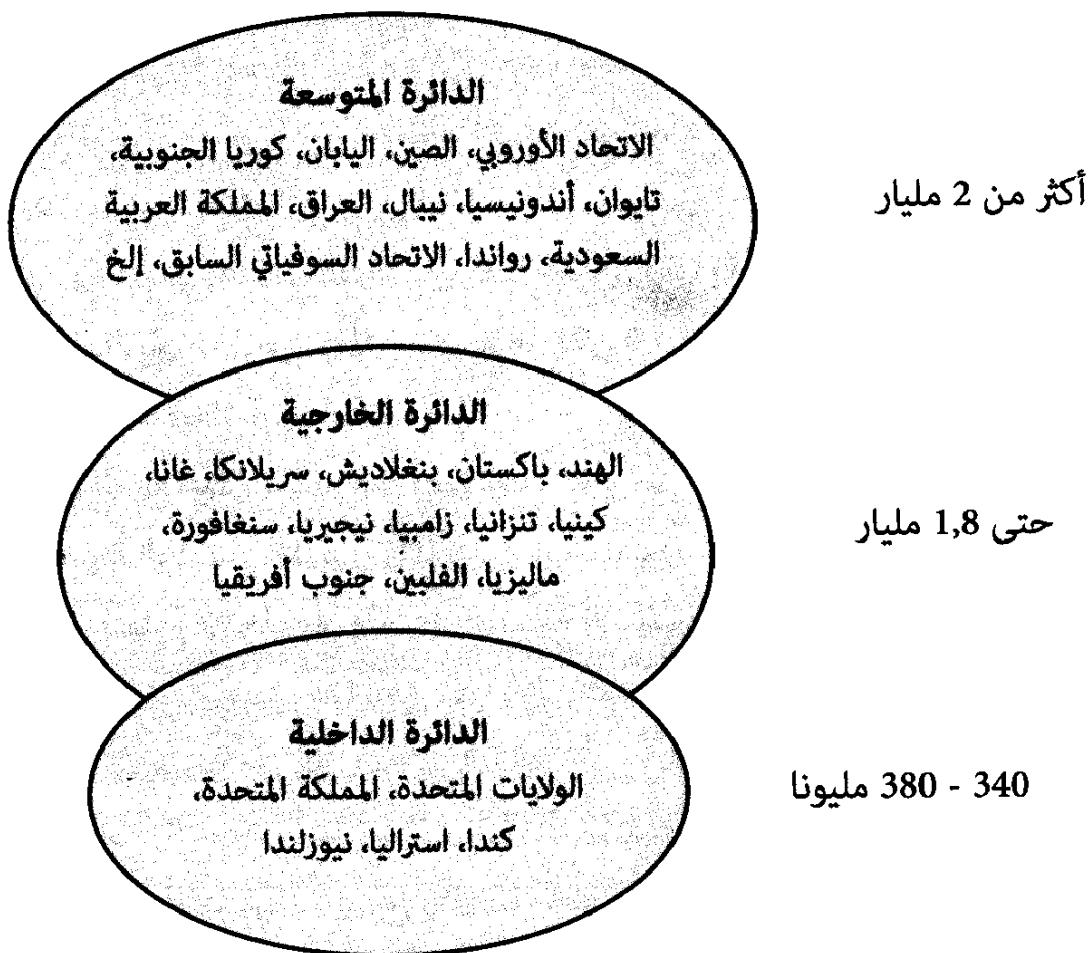
مع إبقاء أمثلة مثل رواندا والهند في الذهن، قد نسأل عما إذا لم تكن هناك طريقة لتشكيل نمو الإنجليزية في سياق عالمي. وفي الحقيقة حاول لغويون عمل ذلك بشكل بصري عدة مرات. ومعأخذ البعد الجغرافي المعنى بالحسبان، يمكن أن يكون هذا مساعداً جداً. تستخد兆 أكثرية النماذج الفئات الأساسية القياسية للإنجليزية بصفتها لغة أصلية (ENL)، ولغة ثانية (ESL)، ولغة أجنبية (EFL). ونحن نعرف أن هذه نتائج تقريرية بسيطة وبديائية، وحدودها متداخلة وقابلة للاختراق. لذلك تم إيجاد طريقة أخرى لتمثيل عالم (عوالم) اللغة الإنجليزية. اقترحت

أصلاً في الثمانينيات وجددها لاحقاً واضعها، براج كاتشرو، وتصور الإنجليزية العالمية على شكل ثلاث دوائر متداخلة (الشكل 2 - 1)⁽⁴⁶⁾. تتضمن دائرة داخلية الدول الرئيسية الناطقة بالإنجليزية، حيث تبقى اللغة هي اللغة الأم المهيمنة. وتشمل دائرة خارجية أكبر الدول حيث تقابل الإنجليزية لغة ثانية، راسخة بشكل أساسي من خلال الاستعمار البريطاني. وأخيراً، تتضمن دائرة متوسعة أكبر أيضاً جميع الأمم حيث كانت الإنجليزية تُعدُّ لغة أجنبية في زمن أحدث (أي الأمم التي لها اتصال تاريخي قليل سابق أو لا اتصال معها)، كما في رواندا. أضاف كاتشرو بعدها آخر أيضاً. فقد تحدث عن الدائرة الداخلية على أنها «مقدمة للمعيار»؛ ودائرة الدول الخارجية بأنها «مطورة للمعيار» بتعديل معايير الدائرة الداخلية لتشكيل لغات إنجليزية جديدة؛ وأمم الدائرة المتوسعة بأنها «تابعة للمعيار»، وتعتمد على الدائرين الآخرين للمعايير، لم توجد (بعد) تنوعاتها الخاصة ذات الطابع المحلي للغة، لكنها سرعان ما تصبح قادرة على فعل هذا.

وهكذا يهدف الشكل (2 - 1) إلى تشكيل عدة أشياء في آن واحد: المقياس العام لاستعمال الإنجليزية حول العالم؛ النموذج التاريخي الجغرافي لشنات الإنجليزية؛ توزيع الحجم العام للسكان الكليين في المجموعات التي تستعمل الإنجليزية (معبر عنه في حجم الدائرة النسبي)؛ وحتى مزيج الاستقلال النسبي والتبعية المتداخلة لكل مجموعة مستعملين. وهذا كثير مما يجب الاستفسار عنه في أي مخطط بياني. ولا يدعوا إلى الاستغراب أنه أثار قدراً كبيراً من النقد بالإضافة إلى الموافقة. وفي الحقيقة، لقد أصبح الشكل (2 - 1) نوعاً من المعيار بحد ذاته في مناقشات اللغة الإنجليزية العالمية. على أي حال، ربما تتضمن الشكوى الأكثر شيوعاً حوله عدم الدقة التاريخية للحدود بين كل دائرة: إن عدداً كبيراً ومتزايداً من المستعملين في الدائرة الخارجية يستعملون الإنجليزية الآن على أنها إحدى لغاتهم الأم، وأصبح الأشخاص في أمم الدائرة المتوسعة يتتحدثون بها لغة ثانية بأعداد كبيرة ومتزايدة. وذكر نقد آخر أن ظاهرة اللغات الإنجليزية العالمية تضعف تفسير أمم الدائرة الداخلية بأنها «مقدمة للمعيار»، لأن متعددي الدائرة الخارجية يفعلون هذا الآن أيضاً، في أغلب الأحيان - ويتضمن معلمو الإنجليزية في شرق وجنوب شرق آسيا الآن أشخاصاً من الهند وسريلانكا وسنغافورة، على سبيل المثال. ولا يُعجب نقاداً

اللغة الإنجليزية العالمية

آخرين أن المخطط يوحي بالتماثل بين جميع الأمم ضمن دائرة معينة؛ ووضع الصين ورواندا في الفئة نفسها يسبب الانزعاج لدى بعض العلماء، مع الأخذ في الحسبان الفوارق في مستوى التطوير، والقدرة الاقتصادية، والاهتمام بالإنجليزية، بين السكان المعندين. وما يشتراك به كل هذا النقد، إذن، هو المطالبة بصورة أكثر تطوراً، لكشف التعقيدات الحقيقة المتضمنة⁽⁴⁷⁾.



الشكل (2 - 1) نموذج من ثلاث دوائر للدول التي تتحدث بالإنجليزية وتعلّمها.
تشير الأعداد إلى عدد السكان الكلي في كل دائرة، وليس مستخدمي الإنجليزية.
من كتاب براج كاتشرو، «اللغة الأخرى» (1992).

إذا كنا أقل طلباً للكمال، ومستعدين للتسامح مع بعض أهداف كاتشرو الأكثر طموحاً، فإن الشكل (2 - 1) يقدم صورة بداية مفيدة ويحتوي أيضاً على مضمون ربما أغفل عنه. فهو يتضمن أن إحدى سمات اللغة العالمية يجب تخصيصها، ولكن

يجب كذلك جعلها عالمية ثانية أو توزيعها إلى مناطق، في دولة بعد دولة، بينما تتحول اللغة الأجنبية إلى لغة ثانية ولغات أصلية محتملة. تعرض هذه الحركة الثانية فعلاً إعادة ذكر لما نناشه - أن الإنجليزية، بعدها لغة تواصل عالمية متداولة، تخص كل شخص يستخدمها، خصوصاً الذين يكيفونها في النهاية مع وضعها وحاجاتها.

يعتمد كل جزء من الشكل (2 - 1) على عامل أساسي: التعليم. وحيثما يحصل تعلم الإنجليزية، يدخل المعلم دائرة الضوء. وبتحدثنا عن السياسة العالمية والتنمية الاقتصادية، ونمو المدن، وطموح الآباء، يعود جزء كبير من مستقبل الإنجليزية وعلاقتها مع اللغات الأخرى إلى التفاعل الأساسي بين الطلاب والمدرسين - من وماذا وأين وكيف هي قاعات الدراسة. وهذا حقيقي تماماً بالنسبة إلى الدائرة الداخلية مثل الدائرتين الخارجيه والمتوسعة، طبعاً. لكن الاثنين الآخرين هما اللتان تخلقان إمكان اللغة العالمية وحقيقة.

في الواقع، يظل تعلم اللغة أيضاً مجالاً لكثير من النقاش الجديد وإعادة التفكير. وقد بدأ العلماء والمربون والموظرون الرسميون كلهم بالتحرك من أجل نماذج أحدث لتعليم الإنجليزية. والادعاء الواسع الانتشار الآن هو أن نموذج المتحدث المحلي التقليدي ضيق جداً وغير مفيد. ولا ينفع فعلاً لطالب أوغندي أو فيتنامي أن يتعلم الإنجليزية من خلال معايير الثقافة الأمريكية أو البريطانية، وأن يزود بالصور والمفردات والعبارات، على سبيل المثال، المرتبطة بالضواحي والأسواق المركزية وصموئيل جونسن^(*). يصبح مثل هذا التعليم مفهوماً إذا كنا إمبرياليين لغوين مع تصاميم لترويج الثقافة البريطانية الأمريكية بكونها معياراً ذهبياً. إن مسألة المتحدث اللغة الأم بوصفها معياراً مطلوباً للطلاق سيدو سخيفاً لدى بعض الناس. فـ أي معيار آخر هناك؟ كيف يمكن قياس القدرة الحقيقية إن لم يكن بمثابة عن متحدث لغة أولى؟ ومع ذلك بعدها لغة عالمية، لم تعد الإنجليزية ملزمة للولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وهي تقوم في أغلب الأحيان بدور وسيط للاتصال بين سكان أمم وثقافات غير ناطقة بالإنجليزية، لحالات محلية ودولية معاً. وتحوي التجربة الفعلية مع متعلمي الإنجليزية اليوم في جميع أنحاء العالم ثانية إلى حد

(*) (1709 - 1784) كاتب وشاعر وناقد بريطاني. [المحررة].

كبير بأن دول دائرة الداخلية ليست المقدم العالمي للمعايير كما كانت ذات مرة. ويشهد المحترفون التجار والعلميون والدبلوماسيون، الذين يسافرون كثيراً، أن قدراً هائلاً من الاتصال اليومي بالإنجليزية يحدث بخبرة وكفاءة بين الذين لا يمارسون، أو حتى يفهمون، الحديث من النوع الأمريكي الإنجليزي. كذلك، بما أن تنوعات اللغة موجودة الآن، لا معنى كثيراً لاستعمال معيار وحيد محلي لعدد قليل جداً من الأمم، في التعليم كله. هل يصبح مفهوماً حقاً محاولة تدريب طفل في إثيوبيا أو بينما على التحدث مثل مواطن في أكسفورد أو آيوا؟ إن نموذج المتحدث المحلي (أي المعيار الأمريكي البريطاني) يمنع الناس في الأمم غير الناطقة بالإنجليزية من إتقان اللغة وطرق تعليمها. وفي الحقيقة، هذا النموذج له أصوله جزئياً في الأيديولوجية الاستعمارية - تذكر ماكولي واقتراحه لتشكيل «طبقة من الأشخاص، الهنود في الدم واللون، لكنهم إنجليز في الميل، وفي الآراء، وفي الأخلاق، وفي الفكر».

بكونها لغة عالمية، يمكن تعليم الإنجليزية، وتعلمها بشكل فعال أكثر، باستعمال مراجع لتجربة وثقافة الطالب اليومية. هذه هي وجهة النظر الجديدة⁽⁴⁸⁾. من الواضح وجود كثير من المنطق في هذا، مع الأخذ في الحسبان دور الإنجليزية واستعمالها حول العالم. ويؤكد البحث الذي يتابع نتائج قاعة الدراسة أن القليل جداً من المتحدثين غير المحليين قد اقتربوا من قدرة المتحدث المحلي المتعلّم جيداً - وهم لا يحتاجون إلى ذلك. وقد أثبتت مستوى من المهارة الذي يسمح لشخص ما بالعمل على نحو جيد جداً في المجالات التي ينشط فيها، سواء في البحث أو التجارة اليومية، أنه يشبع جميع الحاجات في الأغلبية العظمى من الحالات. وتصبح القابلية الوظيفية العالية المستوى، بدلاً من القدرة المحلية الخالية من العيوب، معياراً واقعياً قابلاً أكثر بكثير للتحقيق^(*). وهو يساعد أيضاً في دعم مكانة المعلمين المحليين، الذين لم يعودوا بحاجة إلى محاولة أن يبدوا مثل البريطانيين أو الأمريكيين أو الأستراليين. لاحظ هذه التعليقات من مؤلف ومعلم محترم جداً في مجال تعليم الإنجليزية للمتحدثين غير المحليين:

(*) هذه ليست فكرة جديدة كلية، بأي شكل. طوال عدة عقود كانت توجد مناهج تعلم أشباء مثل «اليابانية التجارية» أو «الألمانية العلمية». لكن تمديد فكرة القدرة الوظيفية إلى برنامج لغة أجنبية كامل (مع خيارات، ربما، مستويات أعلى من المهارة أيضاً) يمثل تغييراً عن الماضي.

إن تبني نموذج متحدث محلي، وبعد ذلك توظيف متحدثين محليين لتشكيله يساعد ببساطة على إعلام الطلاب بأن النموذج يمكن إنجازه فقط من أشخاص يبدون ويعحسبون مختلفين جداً عن أنفسهم. يحمل هذا أيضاً رسالة واضحة بأن المعلمين الذين يبدون ويعحسبون مثلهم غير قادرين على إنتاج النموذج المطلوب.. ومن الصعب تخيل أي مجال آخر يمكن فيه إخبار المتعلمين ضمنياً بأنهم لن يستطيعوا أبداً تحقيق الهدف الذي أعدد المنهاج لهم، بل إن هذا الهدف خارج متناول معلميهم حتى⁽⁴⁹⁾.

والآن، لايزال الطلاب يريدون الظهور مثل الأمريكان (أكثر من غيرهم)، ولايزال المديرون يؤمنون في الأغلب بتوظيف متحدثي اللغة الأولى. ومع ذلك توجد حدود واضحة هنا. ولنذكر واحدة: إن الطلب المتزايد على معلمي الإنجليزية حول العالم، الذي يبدأ بـ ١٠ ملياري متعلم، يتطلب أن نفرغ العام الناطق بالإنجليزية من خريجيه الجامعيين بحلول العام 2020 أو قبل ذلك.

من المفهوم، إذن، أن المعلمين المحليين هم مستقبل تعليم الإنجليزية. وفي عدد متزايد من الدول، هذا حقيقي. وفي أجزاء كبيرة من أوروبا، بما فيها إسكندنافيا وألمانيا وهولندا، حيث يتواجد متحدثو الإنجليزية الأكفاء، يوظفون مدرسيهم الخاصين. وإذا كان تعليم الإنجليزية يتم في عدد متزايد دائماً من أنظمة المدارس حول العالم، فإن أشخاصاً أكثر سيصبحون مؤهلين باللغة، سواء زاروا إنجلترا أو أمريكا أو لا. لذلك قد تكون مسألة وقت فقط حتى يبدأ متحدثو الدائرة الداخلية المؤهلون بالتأكل. فالتاريخ، على الرغم من ذلك، لا يخلو من حس السخرية. والمفترض الحقيقي من الانتشار العالمي للإنجليزية قد يكون المتحدث المحلي نفسه. ستكون بقية العالم ثنائية اللغة في الحد الأدنى، بينما سيكون متحدث الأنجلوأمريكية المؤهل سابقاً منعزلاً في أحاديث اللغة.

التلخيص

يتجاوز استعمال الإنجليزية العالمي بكثير أي شيء في التاريخ المسجل، ويواصل التطور بطرق معقدة ومتعددة الأشكال. سببت هذه الحقيقة إعادة تقويم عميقаً بوساطة مهنة علم اللغة حول طبيعة اللغة وتطورها كظاهرة عالمية، وكيف يجب فهم متحدثيها ودارسيها ومعلميهما. تغطي الأنشطة المتنوعة التي تهيمن الإنجليزية

اللغة الإنجليزية العالمية

عليها الآن الموسيقى الشعبية وفيزياء الطاقة العالية، وتؤمن سيطرتها على المستوى العالمي في العديد من مجالات النشاط الاحترافي والعلمي توسعاً مستمراً تقريباً. يأتي الدعم لهذه النتيجة أيضاً من البيانات المتعلقة بقدرة الطلاب على الحركة الدولية، وهي مؤشر رئيس على مكانة اللغة والمواطن. ومع ذلك لا توجد سوابق حقيقة لقوة الإنجليزية ومكانتها اليوم. وأي تنبؤات حول مستقبل هذه اللغة يجب تقديمها بأسلوب تجريبى.

كانت العوامل التاريخية أساسية في انتشار اللغة بكل تنوعاتها، وهي تظل هكذا. تضمنت هذه العوامل أخيراً أحاديث جغرافية سياسية كبيرة، مثل نهاية الشيوعية السوفيتية؛ التوسع والعمولة الاقتصادية؛ والمخاوف حول الإمداد بالطاقة؛ والجهود الدولية لمواجهة المشكلات العالمية مثل الفاقة والمرض وخسارة التنوع الحيوي وتغيير المناخ؛ وكذلك الكوارث الطبيعية والمفتعلة. لهذه التطورات كلها ارتباط مباشر بالعلوم أيضاً - وفي الحقيقة يحصل ذلك إلى درجة كبيرة بسبب الدور العالمي الذي تمارسه الإنجليزية الآن في كل موضوع علمي. ولنأخذ مجرد مثالاً وحيداً، كان صعود الصين كقوة اقتصادية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين قد سبب زيادة سريعة جداً في معدل الإنتاجية العلمية، لكن من تلك الدولة وللعالم بكامله، بينما كان الطلاب والباحثون الصينيون الموهوبون قد زادوا إنتاجهم المكتوب، وهاجروا إلى أمم أخرى، ووسعوا مقدار الموهبة التقنية العالمية. ومن ناحية ثانية، اعتمد صعود الصين الاقتصادي والعلمي على الإنجليزية بكونها وسيلة للاتصال والنشر العالميين، وبذلك عزّت أهمية تلك اللغة بدورها.

بينما توسيع الإنجليزية، تعرضت آلاف اللغات المحلية للخطر وانقرضت، مما دفع بعض العلماء إلى افتراض علاقة سلبية. بشكل عام، أيضاً، كان التوسيع العالمي الذي توصلت إليه الإنجليزية في العلوم الآن قد اجتذب على نحو لا يمكن تجنبه درجة من المقاومة والقلق، تعمل كما يبدو ضد الفئات المهمة مثل التنوع. هناك أيضاً قلق حول أن العديد من اللغات المحلية والوطنية لن تكون قادرة على «التواصل» مع الإنجليزية فيما يتعلق بالفردات العلمية والتعبير، وبذلك سوف «تموت» في هذا المجال الحاسم. وفي الحقيقة، إن تهديد اللغة ظاهرة أكثر تنوعاً بكثير. ويبدو أن أربعة عوامل - الأولاد، والتعليم، وأفكار الوقت المناسب،

هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية؟

والمدن - هي الحاسمة في تغيير اللغة اليوم. وبالنسبة إلى المهن التقنية ذات البعد الدولي القوي، ليس لهذه العوامل علاقة بالموضوع. فهي حاسمة. وكما سرني في الفصول التالية، عندما يتجمع الدليل، يصبح واضحًا أنه على الرغم من عدم تعرض العلم الوطني في اللغات الوطنية لخطر الانقراض مطلقاً، ما من دولة ذات طموحات إلى التقدم في المجال العلمي يمكن أن تتمى النجاح من دون استعمال اللغة الإنجليزية - هكذا تطورت الحالة حتى الآن. إن استعمال الإنجليزية، بعبارة أخرى، يعني الوصول إلى الأغلبية العظمى من معرفة العالم التقنية. وهي تعنى نظام تعليم يمكنه تدريس اللغة على نحو ملائم، بكونها مهارة، ويقدم بذلك هذا الوصول. وهو يعني مجالاً موسعاً للتوظيف، المحلي والدولي، للذين يتلقون هذه المهارة. وأخيراً، إن المعرفة والتعليم والعمل في العلوم (كما في جميع المهن) التي تركزت في المناطق الحضرية، ستتصبح هكذا بدرجة أكبر حتى مع سيطرة المدن على مستقبل المجتمع البشري.

أي شيء له تأثير الآن في الموقع العالمي للإنجليزية له تأثير في العلوم - والعكس بالعكس. وتظل من الضروري ملاحظة كيف حدث هذا، وأين تقف الإنجليزية في الممارسة العلمية اليوم، وماذا يمكن أن يعني هذا للمستقبل. عندما نعرف هذه الأشياء فقط يمكننا الإجابة بشكل واف عن سؤال هذا الكتاب.